هل من مزيد

"النار تتحدث"

أحمد محمود شرقاوي

بلومنيا للنشر والتوزيع

هل من مزيد

هل من مزيد

النار تتحدث

رواية

أحمد محمود شرقاوي

ببلومانيا للنشر والتوزيع

بلوهانيا

بلومانيا للنشر والتوزيع

٢٠٢٢م

©

إهـــــداء

إلى ربَّ الأرباب، المُستحق للشُكر في كل الأوقات، وبيده مُلك الأرض والسماوات، وإهدائي هذا كنوعٍ من الشُكر لمن لا أحب سواه، ولن أرجو من أحدٍ سواه.

وإلى هؤلاء الغُرباء الذين دخلوا القلب بلا استئذان وأصبحوا أقرب إليَّ من نفسي وروحي، أصدقائي وقرَّائي الأحباب على الموقع الأزرق "فيس بوك".

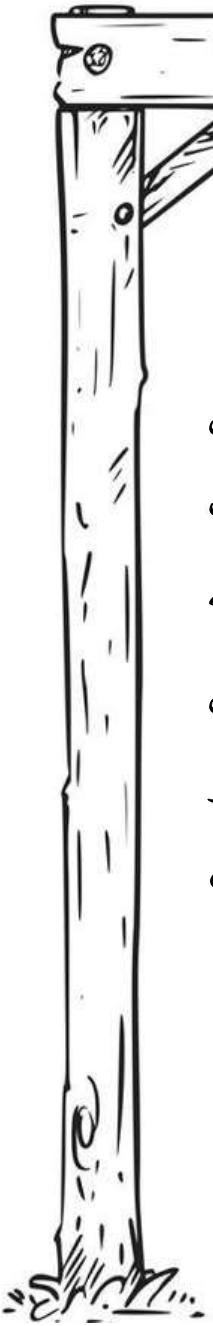

تنويه هام

هذه الرواية لا تُعتبر مادة علمية عن نار جهنم وما يحدث فيها من أهوال، وما ذُكر في تلك الرواية لا يعتد به كحقيقة مُطلقة كترتيب أهوال يوم القيامة وعذاب النار وحكاية الأخدود وغيره، فهذا كله لا يعلمه إلا خالق جهنم، وإنما هي رواية فلسفية بطابعٍ من الفانتازيا والتشويق للحديث عن طرفٍ من النار وبعضًا من أخبار أهلها، وربما زجرٌ الناس عن الأفعال التي قد تؤدي إلى الهاوية، وربما قلب الجحيم نفسه.

الكاتب

أحمد محمود شرقاوي

لا بأس

لأنني والله أنا البأس

وأنا النار

وأنا العِقاب

وقد جئتُ لغايةٍ لا يُدركها إلا الأبطال

هذا يقيني يا رب الأبطال

وهذا بأسي يا رب البأسِ والنار

بقلم/

أحمد محمود شرقاوي

هل من مزيد

جهنم

ما قبل البداية

صرخة هادرة شقت سكون الليل وكأنها زلزالًا عاتيًا قد ضرب الأرض بمطرقةٍ من الجحيم، صرخة بثت في قلبه أعتى علامات الخوف والفزع، جعلته ينتفض بين يدي الحارسين وهما يقودانه بين الدروب الوعرة حيث الكهف.

لم يكن ليخشى الموتِ أبدًا، ولم يتخيل يومًا أن يموت هناك، حيث الوحش الناري، حيث الإله الأكبر الذي يعبدونه، بين جدران معبد النار.

ولكن كم كانت الحياة معه قاسية، قاسية لدرجة أن جعلت موته هناك، حيث يخشى الجميع أن يذكرون حتى اسم هذا المكان، وارتفعت صرخة جديدة تمزق أوصال الليل قبل نياط القلوب، صرخة ألف ألف وحش أسطوري ينزفون حتى الموتِ في قلب الجحيم.

ووصلوا إلى الدرب الوحيد الذي يأخذك إلى الأعلى، وأشهر الحارسين أسلحتهم في وجهه، نظر لهم نظرة أخيرة، نظرة التعلق بما تبقى له من أمل، ولكنهم دفعوه بقوة ليسلك الطريق ناحية الأعلى، حيث الجحيم.

كان الجبل شامخًا بلونه المائل للحُمرة ومن فوقه تتفجر الحمم البركانية المُلتهبة بصوتٍ مخيف ويتطاير لهيبها ليُفتت ظُلمة الليل المَهيب، تتشعب الدروب أسفل الجبل ولكن في منتصفه تجدها كلها تقود إلى دربًا واحدًا يأخذك ناحية القمة، والأمر كان واضحًا له، والحُكم قد صَدر.

"خذوه إلى الإله الأكبر ليبقى في قلب الجحيم خالدًا فيه"

ولم يكن أحدًا ليجرؤ حتَّى في خياله أن يعصي أمره، حتى المحكوم عليه بالإعدام، وتقدم بخُطى هائمة وبعقلٍ فقد اتزانه وبأعينٍ جاحظة ناحية الأعلى، خطوة تلو الأخرى والنيران من حوله تتطاير بشررٍ مُلتهب، القمة بعيدة، والرعب شديد، والوَهن يصول ويجول في جسده، إنه يسير بقدميه ناحية جحيمه الأبدي، يرجو أن يرجع إلى تلك اللحظة التي عصاه فيها، وقتها سيُفكر ألف مرة قبل أن يفعل، ولكن لقد صَدر الحُكم.

الجحيم

النيران

اللهيب

ووصل إلى قمة الجبل، وهناك كان الكهف، الكهف الذي كان يهتز ويرتج كتابوتٍ قد أسر مومياءٍ شرسة بداخله وهي تضرب التابوت بكل عنفٍ لتخرج منه، وارتفعت من جديد تلك الصيحة الهادرة، وتناثر معها شرر النيران الحمراء الملتهبة.

إنه الموت في أبهة حُلة وأبشع وسيلة ممكنة، فالنجاة هنا تساوي صفرًا، تقدم من جديد وقد ألجمه العرق ألجامًا وراح يلهث ككلبٍ ضال كاد أن يهلك عطشا، قطرات العرق تتساقط على أرضية الكهف فتتبخر على الفور من شِدة الحرارة، أنفاسه تضيق وصدره يعلو ويهبط في عُنفٍ طالبًا المزيد من الهواء الذي ترك المكان من شِدة حرارته وبات سكانه يستنشقون البخار الملتهب.

وهناك كانت تنتظره، تنتظره دون مللٍ وهي على يقين أنه سيكون طعامًا لها بعد لحظاتٍ، إنها الفوهة، الفوهة التي تنبض بالحِمم البركانية المُلتهبة، تقدم نحوها وقد باتت قدماه تستغيثان به حتى لا يخطو من جديد، ولكن عقله كان رافضًا لفكرة أنه مخير وأنه قد يرفض الحُكم ويهرب، لقد صدر الحكم وهذا يعني أنه ميت لا محالة، ووصل إلى الفوهة، ولاحت له الحمم البركانية وهي تنبض كحساءٍ ناضج ينادي صاحبه ليأكل منه، ولكن الفرق هنا أن الحساء هو السيد والبشر هم الطعام، وارتفعت صيحة جديدة جعلته ينتفض وينظر ناحية الأعلى.

وهنا شهق شهقة عنيفة، لم تكن شهقة رعب بقدر ما كانت شهقة تعجب، شهقة تنم عن صدمة زلزلت كيانه كله، شهقة ردت إليه عقله المسلوب وقرر أن يهرب من هذا المكان كله، الحُكم باطل، الحُكم باطل.

هكذا ردد بين ثنايا عقله والتفت ليركض ناحية الخارج، ولكنه ما إن التفت حتى رآه يقف من خلفه، وقبل أن يتبين ملامحه دفعه هذا الشيء بكل قوته ناحية الفوهة، وهوى جسده ناحية الحمم وهو يصرخ بكلمة

"باااطل"

وابتلعته الحمم وأذابت لحمه وعظامه في ثوانٍ معدودة لتنبض بعدها عدة نبضات ثم تهدأ تمامًا بعد أن التهمت وجبتها، وهنا التفت هذا الشيء إلى الخارج وسار بكل هدوء حتى خرج من المكان كله، ومن خلفه عادت الصيحة المُخيفة تصرخ بصوتٍ جبار.

****

البداية «بعد عشرون عامًا»

وشروق الشمس كان للسما والبدر نور

والحياة كانت يا حور في عينيكِ أغلى نور

وأنا على الأرض يا حور أحتاج نور

تململ في فراشه مبتسمًا وهو يستيقظ على هذا الصوت الملائكي، صوت راعي الغنم الذي يجلس على تلك التبة وسط الغنم وهو يغني نفس الأغنية كل صباح لحبيبته التي لم يعرفها أحدًا قط، فليس هناك بفتاة تسمى حور في الوادي كله، ولكنه أصبح مشهدًا مألوفًا ومفروضًا على الجميع كل صباح، فحينما تُشرق الشمس يرتبط مع شروقها وجود هذا الراعي وهو جالسًا وسط الأرض الخضراء على تلك التبة التي اعتقد البعض أنها قد نُصبت لأجله حتى يغني لحبيبته حور.

نادته والدته من بعيد حتى يستيقظ فأجابها سريعًا وانتفض من فراشه، نظر من الشرفة على هذا المشهد البهيج؛ مشهد راعي الغنم وأغنامه، وابتسم ثم خرج من غرفته الصغيرة ليتجه إلى والدته التي نظرت إليه في عتاب يشوبه القليل من الغضب قائلة:

- هل يوقظك راعي الغنم ولا يوقظك ندائي؟

قَبَّل جبينها مبتسمًا وهو يجيب:

▪ الصوت العذب يزيدك نعاسًا وأنتِ صاحبة العذوبة كلها.

نظرت له في صرامة ثم دفعته برفقٍ فراح يقهقه بصوتٍ عالٍ بينما قالت هي:

• هيا يا بني فالملك لن يقبل أن تتأخر عليه واليوم أريدك أن تُشعل القناديل قبل الرحيل.

▪ لقد نسيت فاليوم موعِد الصرخة وسيكون هناك زحامًا كبيرًا.

• لهذا يا ولدي كنت أوقظك باكرًا.

حمل المشاعل المُطفأة وخرج مهرولًا من المنزل الصغير وهو يلوم نفسه على النسيان الشديد الذي راح يصاحبه تلك الأيام كثيرًا، مر بجوار راعي الأغنام ولم يحييه ككل صباح وبدت على ملامحه علامات التوتر الشديد، لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن يتأخر على الملك، ومع ذلك فالقناديل لابد له أن يشعلها ككل يوم، وانتهت الأرض الخضراء ووصل إلى بداية الأرض الحمراء.

الأرض التي تُشعرك بأنها قد شربت أنهارًا من الدماء ولازالت تشتاق للمزيد، أرضٌ قاحلة وكئيبة، تصول بها الشقوق الجافة، الحادة، التي تخبرك بأنها ما شربت الماء منذ قرونٍ من الزمان.

تجاهل كل تلك الأفكار وشعور الرهبة الذي يراوده كل صباح وهو يمر من خلالها حتى لمح التجمهر الشديد أسفل الجبل، لعن نفسه ألف مرة على تأخره وهو يشاهد التدافع والصياح هنا وهناك.

وكيف يلومهم أصلًا؟؟

فالليلة ستكون الصرخة، والكل يبادر في إشعال قناديله مبكرًا، نظر بين الحشود لعله يجد من يساعده في إشعال المشاعل المُطفأة التي يحملها ولكن كان الكل يصارع لأجل نفسه فقط، وقف حائرًا يفكر في مصيره.

ماذا لو تأخر على الملك؟؟

وفي نفس الوقت لا يمكن أن يترك القناديل في المنزل مُطفأة لأنها ستكون ليلة ظلماء مثيرة للفزع في قلب والدته، خاصةً إنها ليلة الصرخة، وبين الجموع زج بجسده، ونازع ليحصل على حقه المسلوب، كان يدفع الأجساد بعنفٍ تارة ويدفعونه تارة أخرى حتَّى وصل بعد ساعة كاملة إلى المجرى الضيق الذي تتقطر إليه قطرات الحِمم من شقوقٍ خاصة في باطن الجبل فتتجمع فيه وتجري ناحية حفرة دائرية لتسقط فيها، أحضر من جانب الحفرة قطعة قماشية ولفها على مشاعله الثلاثة ثم غمسهم في السائل الأسود الموضوع في حفرة صغيرة بجوار الحفرة الأكبر، ثم وضع المشاعل في الحمم فاشتعلت وتأججت نيرانها، وانقبض قلبه كله من جديد.

إنها النار، النار التي لم ينجح لسنواتٍ أن يتغلب على خوفه منها، كلما تتردد تلك الأحرف أمامه المكونة لكلمة النار كان قلبه ينقبض بشدة، أما حينما كان يأتي كل صباح ليشعل المشاعل ويرجع ليشعل قناديل البيت فكانت تصيبه بخوفٍ يصيب قلبه لساعة على الأقل، هل حدث له شيئا وهو صغيرًا، حادثة لها علاقة بالنيران مثلًا، أم أن تحذيرات أمه المستمرة هي من جعلته هكذا؛ يخشى أي شيء له علاقة بالنيران، حتى الشمس يخشى أن ينظر اليها.

تجاهل كل أفكاره وسارع بالعودة إلى المنزل فاستقبلته أمه على الباب قلقة جدًا من تأخره على الملك، ولكنه تجاهلها ووضع المشاعل في القناديل ليبقى البيت مضاءً حتى شروق الشمس التالي ثم رحل مُسرعًا ناحية القصر.

قصر الملك سديم.

****

وقف في زيه الإمبراطوري في ساحة قصره ممشوق القوام بجسده المفتول بالعضلات يتابع بأعين نارية كأعين النسور تلك المعركة التي تدور من أمامه، بين هذا الشاب الذي تبناه منذ سنوات ومدربه الضخم، كانت نظرات الإعجاب والفخر تظهر جليه في عينيه وهو يرى صيحات الغضب وصرخات المعركة تصدح من حنجرة الشاب وهو يهاجم مدربه في ضراوة، والمدرب لا يلاحق على صد هجمات الشاب، وهنا صرخ الشاب صرخة عاتية مُزلزلة، وقفز في الهواء كالليث ثم ضرب بسيفه على درع المدرب فأسقطه أرضًا، وهبط الشاب ثم سرعان ما دار حول نفسه وصاح صيحة جديدة ثم انتزع الدرع وطوح به بعيدًا وفي لحظة كان نصل سيفه على عنق مدربه، وهنا صفق الملك في انبهار وهو يصيح بصوتٍ أجش وسط حاشيته الواقفون من خلفه في خشوع:

◈ هذا هو فتاي.

التفت الشاب إلى الملك ثم تقدم ناحيته وسقط على ركبتيه مبتسمًا وهو يجيب:

□ مولاي أنا في خدمتك.

وهنا انفتح باب القصر الصغير ودلف منه شابًا آخر فالتفت له الملك وسرعان ما تحولت ملامحه إلى الغضب الشديد وهو يقول:

◈ أرجوان.

تطلع الشاب إلى الملك وهو يقول:

▪ أعتذر كثيرًا عن التأخير أيها ال....

قاطعه الملك في حدة قائلًا:

◈ كالعادة تعتذر وأنا لا أعرف لماذا أتهاون معك في العقاب.

▪ أعتذر منك كثيرًا أيها الملك.

وهنا تطلع أرجوان إلى الشاب الآخر قائلًا:

▪ إيوان، كيف حالك يا أخي؟

نظر له الشاب نظرة ثقة وقوة وبأس وأجابه:

□ لقد تغلبت اليوم على مدربنا يا أخي فهل يمكنك أن تفعلها؟؟

تألقت أعين الملك ببريقٍ مُخيف وهو ينتظر رد أرجوان الذي دار ببصره بين الملك وإيوان ثم قال:

▪ بالطبع سأحاول لأجل أن يفخر بنا أبانا وملكنا.

وهنا قذف إيوان بسيفه ناحية أرجوان فتلقف الأخير السيف ووقف مواجهًا للمدرب الذي نهض من مكانه ووقف يتطلع في بأس إلى أرجوان.

وبدون سابق إنذار انقض المدرب على أرجوان بكل عنف فتفاجأ الأخير بقوة الضربات وراح يتفاداها ويصدها بصعوبة وقلق، ولكن المدرب كان أشرس من النمر الغاضب بسبب ما حدث معه منذ دقائق وراح يضرب سيف أرجوان في قوة وبأس شديدين حتى أسقط السيف من يده وهوى بمقبضه على وجه أرجوان فأسقطه أرضًا وهو يدمي من موضع الضربة.

وهنا صاح الملك في غضب:

◈ كفى.

فتراجع المدرب سريعًا وغادر الملك الساحة غاضبًا وهو يصيح:

◈ أرجوان تعال إليّ فورًا.

نهض أرجوان من سقوطه ونظر إلى أخيه الذي نظر له في سخرية واستهزاء وأشار له كي يتبع الملك بطريقة مسرحية، كان إيوان طويل القامة أطول من أرجوان، ويتميز بشراسة نظراته وحِدة ملامحه، خاصة مع عينيه الزرقاوين الضيقة التي تُخيف كل من يتطلع فيهما، وحتَّى مع تِلك الملامح الوسيمة فقد بقي وجهه جامدًا، مُتصلبًا، يبعث الرهبة في القلوب، وعلى العكس كان أرجوان ذو ملامح بريئة، هادئة، تتشابه كثيرًا مع أهالي الوادي وخاصة البسطاء منهم.

دلف أرجوان إلى ساحة العرش فوجد الملك يجلس على عرشِه الفاخر، الضخم وسط تلك الساحة البلُّورية البرَّاقة ويتطلع إليه بثباتٍ، اضطرب أرجوان من تلك النظرات ونظر أرضًا فتحدث إليه الملك في هدوءٍ شديد:

◈ إلى متى ستبقى هكذا يا بني؟؟

لم يجبه أرجوان ولم يجد ما يجيب به فطال صمته والملك لازال مسلطًا عينيه الحادة عليه ليتابع:

◈ أنت تعرِف أنكَ قد تربيت في قصري منذ الصغر بعد أن مات والدك في الحرب الأخيرة مع المُسالمون، وعلى الرغم مِن تقصيرك في التدريبات وعدم طاعتك لبعض أوامري، إلا أنني كنت رحيمًا معكَ كثيرًا ولا أعرف لِما، وحتَّى حينما اخترت أن تعيش مع أمك، وتأتي للقصر كل صباح وتغادره كل مساء لم أمنعك من هذا، مع أن أخيك إيوان قد اختار البقاء دائمًا بجواري مع إن ظروفه تتشابه كثيرًا مع ظروفك، فقد مات والده أيضًا في حربنا مع المسالمون.

لم يرفع أرجوان عينيه من الأرض بينما تابع الملك:

◈ وها هو تعنتك قد وصل بنا إلى مرحلة مُخزية، إيوان يتغلب على كل شيء وأي شيء، وأنتَ لازلتُ تُشفق على أهل الوادي وترفض أن تطيع أوامري.

ثم تحول صوته فجأة إلى صوتًا جبارًا وهو يصيح:

◈ أيها الحارس.

وهنا دلف الحارس سريعًا ومعه فتاة رثة الثياب زائغة العينين ينسدل شعرها على عينيها وترتجف بشدة، أخرج الملك خنجره وطوح به ناحية أرجوان وقال له:

◈ اذبحها أسفل عرشي حتى أرضى عنك.

رفع أرجوان رأسه حائرًا وهو يقول:

■ سيدي لقد....

صاح به الملك مقاطعًا:

◈ لو لم تفعلها لسوف أعاقبك عقابًا شديدًا.

وهنا أمسك أرجوان الخنجر بيدٍ وجلة، واقترب من الفتاة التي قيدها الحارس وأمسك عنقها بقوة، رفع خنجره ونظر في عين الفتاة التي راحت تتحرك في عشوائية وفزع، وتراخت أعصابه القابضة على الخنجر ليسقط من بين يديه، ونزل الملك من على عرشه وهو يستشيط غضبًا، اقترب من أرجوان ثم لطمه بعنفٍ فأسقطه أرضًا ثم نادى بأعلى صوته على إيوان الذي حضر فورًا وأمسك الخنجر ثم نحر الفتاة في لحظاتٍ معدودةٍ بكل عنفٍ ودون أدنى شفقة.

سالت دماء الفتاة على الأرض البلورية البراقة وراحت تجري كثعابين صغيرة، ابتسم الملك وهو ينظر إلى إيوان ثم صاح بالحارس قائلًا:

◈ أيها الحارس ضع أرجوان في السجن ولا تخرجه إلا بأمري.

ونظر بوجهٍ كالح إلى أرجوان، الذي أصابته دهشة شديدة وهو يرى أخاه يبتسم، وأباه يأمر بسجنه هكذا، وسحبه الحارس بكل عنف وغلظة وقاده إلى أسفل القصر حيث الزنازين، مروا بغرف الحاشية حتى وصلوا إلى نهاية القصر ومنه دلفوا إلى غرفة جانبية، ثم هبطوا درجًا ضيقًا قادهم إلى الأسفل حيث الممرات المُظلمة، مروا على عِدة زنازين بها أشباه من البشر بعد أن تآكلت أجسادهم ثم فتح زنزانة فارغة وزج به إليها، ثم أغلق بابها في عنفٍ، ورحل تاركًا إياه وقلبه ينتفض من الخوف والدهشة والحزن.

****

جلس على أرض الزنزانة حائرًا، لا يعي ما يحدث له، أيسجنه أبوه بعد كل هذا؟؟

هل هو مخطئًا لأنه يرفض أن يسفِك الدماء ويسطو على الضُعفاء، يتساءل في قرارة نفسه؛ لماذا أصبحت هكذا؟؟

لماذا لا أكون قاسي القلب مثل أخي؟؟

ما تلك الشفقة الغريبة التي تسيطر على قلبي كلما رأيت أحد جنود الملك يغتصب امرأة أو يقتلها أو حتى يهدم بيتًا على رؤوس قاطنيه، أليس هذا ما نعلمه؟؟

أن الملك هو خادم إله النار الذي نعبده وله كل الحق في فعل أي شيء، أليست حياتنا مِلكٌ له؟؟

لماذا لا يقبل عقلي كل تلك الأفكار.

أصابته حيرة شديدة وهام في محيطٍ من الأفكار ليس له من قرار، أفاق على همساتٍ قادمة من الخارج فانتفض ونظر على الضوء الواهن ليرى وجهًا ملائكيًا ينظر له من خارج الزنزانة.

إنها هي ... هيلانة.

نهض إليها ووقف أمامها، لا يفصل بينهما إلا الباب، وابتسم لها في رقة، فقالت له:

◙ أيها التعس لماذا تُغضب الملك دائمًا؟!

▪ لا أعرف يا هيلانة، فأبانا دائمًا غاضبًا عليّ، وراضيًا عن إيوان.

◙ أنت تعرف جيدًا أنه ليس أبانا هو فقط قد تبنى ثلاثة من الوادي كله، أنا وأنتَ وإيوان، وبما أننا لسنا من نسله فقد يغضب علينا وقد يقتلنا إذا خالفنا أوامره.

▪ نعم عرفت هذا اليوم، فهو ليس بأبي ولن يكون، هو يعتبرني مجرد خادمًا له.

◙ لا تحزن أيها التعس، وسأحاول أن أستعطفهُ ليخرجك في أقرب وقت، ولكن عِدني ألا تُغضبه ثانيةً.

راح يتأمل ملامحها وقد توقفت أذناه عن سماع كلماتِها، جميلة هي تلك الهيلانة، جميلة بحقٍ، تلك العينان البنيتان الواسعتان، هذا الوجه الطفولي العابث، وتلك الابتسامة الساحرة أعطتاها جمالًا جبارًا، كانت حلمه مُنذ الصِغر أن يزوجه الملك إياها، ولكن مع تفوق إيوان عليه في السنوات الأخيرة، ومع نظرات إيوان الغريبة لها أيقن أن الحصول عليها سيكون صعبًا جدًا.

◙ أيها الأحمق أنا أحدثك.

أفاق من شروده على حديثها فقال:

▪ معذرة فأنا...

ثم توقف حديثه حينما سمِع أنينًا عجيبًا من الزنزانة المجاورة، أرهف السمع وحاول أن يتبين تلك الكلمات، ولكنه لم يفهم مِنها شيئًا.

ابتسمت هيلانة ابتسامة عابثة وهي تقول:

◙ يقول أبي أن السجن هنا به الكثير من المخابيل الذين يعبدون إلهًا غير إله النار، الذي يكون أبي خادمهُ، هؤلاء الحمقى كيف يتوقعون أن هناك من هو أقوى من النار في هذا العالم؟!

انقبض صدره على ذكرى النار، ولكنه تماسك وقال:

▪ لا أهتم.

◙ حسنًا فلتبقى أيها الأحمق مع هؤلاء المخابيل، حتى أستعطف أبي.

وناولته بعض الطعام والكثير من الماء وهي تتابع:

◙ سأرحل الآن حتى لا يراني أحدًا فتُصبح طامة كُبرى لو علِم أبي بالأمر.

تركته وهي تغمز بعينيها، ثم رحلت في هدوءٍ تام وهي تسير على أطراف أصابعها، حتى لا ينتبه لوجودها أحدًا من الحراس الذين يهبطون إلى هنا من حينٍ لآخر، صعدت الدرج الضيق و....

شهقت فزعة حينما وجدت إيوان واقفًا يسد عليها الطريق:

◙ أيها الغبي لقد أفزعتني.

□ إذًا فقد كنتِ تساعدينه؟؟

◙ لا لم أفعل.

نظر إليها بأعينه الحادة الضيقة، وراح يتفحص ملامحها مما جعلها تتعرق ويحمر وجهها وهي تتلاشى نظراته، فتابع هو:

□ لقد أخبرتك مرارًا بوعد أبي أن تكوني لي، ولن يحصل عليكِ سواي، فلا تُرهقي نفسك معه فهو سيُطرد من القصر عما قريب.

◙ مَن أخبرك بهذا؟؟

□ ستثبت الأيام لكِ صحة حديثي، واعلمي جيدًا أن حياتك ستكون معي ولن تصلح مع أحدٍ غيري يا...

ثم غمز بعينيه وتابع:

□ يا حبيبتي.

زفرت في ضيق، ودفعته للخلف ثم رحلت عن المكان، بينما هو راح ينظر في غل ومقت ناحية الأسفل، حيث زنزانة أرجوان.

****

راح يتأمل تلك الزنزانة الضيقة في حُزنٍ بالغ، هذا القبر الضيق الذي يحتوي الأحياء دون أدنى شفقة، تلك الجدران المتهالكة التي تكاد تسقط لتدفن أسفل منها هؤلاء الأحياء لتنقلهم إلى العالم الآخر، وهذا الباب الحديدي الذي ينظر إليك بكل سخرية وكأنه قد وُكل بإغاظتك أبد الدهر، أو كأنك عدوه الأزلي اللدود.

"يا أمااااااه"ردد تلك الكلمة في قرارة نفسه حتى النخاع وهو يرى بعين الخيال قلقها وتوترها عليه طوال تلك الليلة التي لن يرجع فيها إلى البيت، وانخلع قلبه من مكانه حينما تذكر أنها الليلةُ المشؤومة، لربما أخذها الخوف عليه لتخرج ليلًا باحثةً عنه، ستكون كارثة لو صادفت رعاة إله النار، سيقتلونها شر قتلة، فتلك الليلة من كل شهر لا خروج إطلاقًا، الكل يلزم بيته مرتجفًا وجلًا خائفًا، حتى تشرق الشمس ليروا من تعيس الحظ الذي قتله رعاة الإله وهدموا بيته قربانًا إلى الإله.

كارثة أن يترك أمه وحيدة في تِلك الليلة، يجب أن يخرج فورًا، ولكن كيف يخرج؟

كيف؟

ولو صاح وأسمَع الحَرَّاس ووصل خبره للملك لربما قَتَل والدته أو قتله هو، لقد اشتد غضب الملك عليه، فطوال السنوات الماضية لم يضربه الملك أو يسجنه،

ومعنى أن يحدث هذا أنه قد ملّ منه، وبعد الملل والسجن يأتي القتل، فالملك لا يرحم إطلاقًا، الدم عِنده أهون من الطعام والشراب، ولا يجب أن يُثير غضب الملك حاليًا بأي حالٍ من الأحوال، خاصة مع تقرب أخيه منه وتوددِه له مرارًا، هناك فخًا مُريبًا يدور حوله ولا يجب أن يكون طرفًا بغبائه على إنجاحه، هكذا كان شعوره، هذا الشعور الذي لم يخذله ولو مرة.

واشتعلت نفسه قلقًا حينما تخيَّل أمه تخرج مع بزوغ القمر تهرول في الوادي باحثة عنه لأنها تخشى عليه من رعاة الإله، وتخيل والدته تُنحر ويُراق دمها على أرض الوادي، وهنا ثار من داخل زنزانته وراح يضرب الحائط المجاور بقبضته في غلٍ وحنق كبيرين، صراع رهيب يمزقه من الداخل، هل يصرخ فيصل صوته سريعًا للملك عبر الحراس وتكون العواقب وخيمة أم يصمت فيرى غدًا جثة أمه على أرض الوادي.

واشتعلت نفسه أكثر وراح يضرب الحائط المجاور في غضبٍ شديدٍ، ووصلت إليه الهمهمات من جديد، وتوقف، وأرهف السمع بشدة، مجرد همهمات غير مسموعة إطلاقًا، تحدث بصوتٍ مضطرب وهو يقول:

- أيها الأخرق تحدث بصوتٍ مفهوم أو اصمت حتى لا أقتلك.

ولكن قبل أن يتم جملته أصبحت الكلمات أكثر وضوحًا.

◘ حائرًا في أمرك يا عبد الله، فلا تمل من دعاء الله، فالدنيا دار الفناء، وكلنا سنلقى الله.

تعجب من تلك الكلمات الغريبة التي يسمعها لأول مرة، فتحدث في هدوء بعد أن اطفأت الحيرة نيران غضبه وقال:

▪ ماذا تقصد بكلماتك يا هذا؟؟

◘ كل الأمور تجري بقدرِه، فلا تجزعنَّ بأمره، فلا تغضبنَّ لحكمته، فلا تظلمنَّ بقوته، فلا تتجبرنَّ بسُلطانِه.

▪ مَن هذا الذي تجري الأمور بأمره، أتقصد أبي أم تقصد إله النار.

◘ رب النار ورب الأرباب، رب النار ورب أباك، رب النار ورب السماوات.

▪ وهل هناك ربٌ للنار أيها الأحمق، هل هناك من يقدِر عليها أو يتحكم بِها، صدقت هيلانة حينما قالت عليكم مخابيل.

◘ ليست ناركم بنار، فالنار في الآخرة نيران، نيرانكم فيها لا تُذكر، ولهيبها لا يُرى، وحرها بارد، وضوءها ساطع.

لا يعرف سر تلك السكينة الغريبة التي لامست قلبه وهو يسمع هذا الكلام العجيب فتساءل:

▪ وهل نترك عبادة نارنا ونعبد تلك النار التي تتحدث عنها.

◘ تحرق بأمر ربها، ليس لها حول ولا قوة إلا به، هي عذابه وهو القادر، هو الرَاحِم وهو المُعذِب، فكن معه تسلم مِنها ومِن غضَبه.

▪ وهل تظن أن الأمر سهلًا حتَّى أعبدُ من تتحدث عنه، صدقني وقتها سأكون ضيفًا في قلب كهف النيران.

◘ رضيعٌ أشجع منك، وامرأة مؤمنة، وغلامٌ تحدى جبار، فلا تُحقَّر من شأنك.

▪ حديثُك مريب أيها الرجل، هلا أخبرتني عنهم ولو قليل.

◘ لكَ ذلك.

الشمس تُغازل الأفق بأشعةٍ ذهبيةٍ خلابة، نسمات الهواء العليل تُداعب خيوط الظلام التي راحت تنسج ستارها في هدوءٍ تامٍ، الشمس تستسلم لهذا الستار وتنحني في خضوع، فلا هي سابقة للقمر ولا الليل سابقٌ للنهار، وعلى صعيدٍ آخر في قلوب أهل الوادي فقد حلَّ عليهم ضيفًا ثقيلًا، ضيفًا لطالما أرادوا أن ينحروه نحرًا.

****

الرعب

اكتمال القمر

ليلة الصرخة وخروج رعاة الإله

وفي تلك الليلة من كل شهر تشتعل كل القناديل ويبقى الناس مستيقظين حتى شروق الشمس، الكل يدعو ويبتهل من قلبه ألا يكون هو المنشود تلك الليلة من رعاة الرب، فحينما تخرج الصيحة يقتحم الرعاة أحد المنازل ويقتلوا أهله ويهدموا البيت تقربًا من إله النهار، حتى يهدأ ولا يحرق الوادي كله، وهذا بعد أن يظل الملك يبتهل لثلاث ليالٍ ليقبل منه الإله القربان، ويرضى عن الوادي كله لشهرٍ كامل، وغرُبت الشمس تمامًا وبات الوادي مهجورًا حتى من الطير والحيوان.

وقفت هيلانة في شرفة القصر تنظر إلى الوادي وقلبها يرتجف ككل من بالوادي وإذا بها تلمح إيوان يقف أمام القصر وفي يده كأسًا من خمر، نادته قلقة ولكنه تجاهلها مرارًا وراح يتجرع من كأسه في تلذذ، وأخيرًا التفت لها:

● هيا أيها الأحمق ادخل إلى القصر، فلا منقذ من رعاة الإله فهم ليسوا ببشر لتتغلب عليهم أيها المغوار.

ابتسم لها في سخرية وقال:

□ تعرفين أنني لا أخشى أحدًا في هذا العالم.

ثم تراجع بهدوء إلى القصر بعد أن فعل ما كان يريده، فهو يريد أن يظهر أمامها في مظهر الشجاع الذي لا يهاب أحدًا، حتَّى رعاة الإله الأشداء، وهنا وصلت عربة ضخمة تجرها الأحصنة إلى القصر فتابعتها هيلانة بترقب لتدلف إلى الساحة ويضع بداخلها الحراس شيئًا مغطى بغطاءٍ أسود فلم يظهر منه شيئًا، ثم رحلت العربة سريعًا.

وكان هذا ما يحدث في كل ليلة مشؤومة، تأتي نفس العربة لتأخذ شيئًا مُغطى بغطاءٍ فلا تعرِف ماهيته، ثم ترحلُ سريعًا، ولطالما سألت أباها، ولكنها كانت تجد نظرات الغضب التي جعلتها تتوقف تمامًا عن السؤال، وإن ظل الفضول ينهشها نهشًا كما تنهش الضباع لحوم الجيف.

****

القلق راح ينهش فؤادها بلا رحمة أو أدنى شفقة، تترقب ظهوره كل ثانية لعله يرجع ولكن ما من مجيب، الصرخة أوشكت على الانطلاق وسيخرج رعاة الإله وولدها لم يرجِع بعد، هل لازال بقصر الملك؟؟

ولكن ماذا لو لم يكن هناك؟؟

وقتها ستكون كارثة، كيف تصل للملك الآن لتطمئن على ابنها، ولكن لماذا لا يرجع الليلةُ خاصة، هو لم يبيت بقصر الملك أبدًا ولا مرة، فلماذا يفعلها في تلك الليلة المُخيفة، فتحت باب البيت الصغير ووقفت على عتباته تترقب، ربما يظهر الآن ويطمئن قلبها الملتاع.

تنظر ناحية الجبل على ضوء القمر وتبتهل إلى إله النار لعله يرجِع ولدها أو يُأخر خروج رعاياه لحين عودة ولدها، وتُخبر إله النار أن ولدها خادمًا وابنًا للملك، الملك الذي يكون خادمًا للإله نفسه.

وفي تلك اللحظة شق سكون الليل صرخة الإله، صرخة رهيبة، عالية، رجت الجبل رجًّا مِن شدتها وقوتها، ليعقبها شرر النيران الذي ملأ الليل نورًا، وفزع قلبها أيُما فزع، أغلقت بابها وهي تتحدث بصوتٍ مضطرب.

• حتما أنه في القصر فهو لن يخرج ليلًا هكذا.

وفي الأفق صدحت أصوات رعاة الإله وهم يهرولون مِن فوقِ الجبل، أصواتهم كانت مزيجًا من زمجرة الكلاب وزئير الأسود، وأجسادهم كانت مُغطَّاة بجلود الأغنام ورؤوسهم كانت أقرب إلى رؤوس الثيران بأعين بيضاء تمامًا، ولا يشوبها أدنى شيء.

هبطوا من فوق الجبل وارتفعت أصواتهم أكثر وأصبح يسمعها كل من بالوادي، الكل بالداخل يرتجف وينتفض، صرخة الجبل تُمزق ستار الليل من جديد يعقبها شرر اللهب، أصوات الرعاة تتحول إلى أصواتٍ تُشبه أصوات صِغار القرود وهم يركضون في كل نواحي الوادي، البعض يتابعهم من خلف النوافذ في صمتٍ تام ورعبٍ هائل.

ومرت ساعة كاملة وهم يركضون بلا هدف، كشياطين وجدت نفسها في الجنة بعد أن حُرِّمت عليهم، ساعة كاملة والكل يرتجف خوفًا ورُعبًا، و....

وكانت هي تجلس في صمتٍ لا يُشغل بالها إلا ولدِها، تحاول بشتى السُبل أن تُطمئِن نفسها بأنه في القصر آمنا، وفجأة يتحطم الباب كاملًا ويدلف الرعاة إلى بيتها، انتفضت فزعة من جلستها وهي تنظر إليهم وقد شل الرعب لسانها، وقف واحدٌ مِنهم على بابها ثم مد قدمه اليُمنى ناحية الداخل ثم تراجع بها، ثم مد قدمه الأخرى ودلف إلى داخل البيت وهو ينظر اليها مُحركًا رأسه يُمنةً ويُسرى وكأنه

يسخر منها، وهنا صرخت المرأة بكل ما تملك من صوت والراعي يقف مُراقبًا إياها في ثباتٍ رهيب، صرخت مرات ومرات ولكن لا نجاة، مَن هذا الذي سيخرج من منزله في تلك الليلة؟؟

وأخرج الراعي من ردائه خنجرًا أسودًا ثم غمسه في نيران القنديل فاشتعل نصلهِ بين يديه، اقترب من المرأة وهو يزوم كالقطط التي تحمي صغارها بينما هي كانت تنظر إلى نصل الخنجر جاحظة العينين فزعة، ينتفض بدنها كل لحظة، ودون أدنى شفقة رفع الراعي خنجره الملتهب وغرزه حتى مقبضه في قلب المرأة التي شهقت شهقة عاتية والخنجر الملتهب يخترق فؤادها ويحرقه، انتفضت مرتين وجحظت عيناها، وتصلب الجسد كله، ثم سرعان ما تراخى جسدها كله وسقط أرضًا تزامنًا مع نزع الراعي لخنجره من قلبها لتندفع نافورة من الدماء من موضع الطعن.

سقطت المرأة جثة هامدة وعلى الفور كان الرعاة في الخارج يسكبون السائل الأسود حول المنزل وبداخله وخرج عليهم الراعي حاملًا جثمان المرأة ووضعها خارج المنزل، ثم أشعلوا البيت كله ليُصبح في دقائق معدودة أثرًا بعد عَين، نظر الراعي إلى الجثة الملقاة وقد فارقت الحياة وأصبحت في خبر كان، ثم ..ثم ابتسم..

****

في الزنزانة

◘ كان طاغية، يدعي الألوهية، يخدمه ساحر، يتنبأ بالمستقبل، ينصاع الناس له في كل أوامره، له جيش جبار، وسحرة أشرار، وأناسٌ عبيد.

▪ لا أُحب المقدمات أيها الرجل المسجون فاحكِ لي سريعًا ما تريده.

◘ كان فيمن قبلنا ملكٌ ظالم، يدَّعي الألوهية ويعبده الناس، يخدمه ساحر شرير، وكان الساحر يستطلع أمور الناس بأعوانه ويخبر الملك، وكان الملك يحضر الناس ويخبرهم بما فعلوه.

أنت ذهبت للمكان كذا، وأنت فعلت كذا.

بل وكان يتنبأ لهم بما سيحدث في مستقبلهم القريب، مما جعل هيمنة الملك تصل إلى كل قلوب الناس، الكل قد انصاع وطأطأ رأسه، الكل قد أعلن الطاعة العمياء، فمن هذا الذي يعصي الإله؟؟

ولكن السنوات كانت قاهرة، والزمن لم يرحمه، وشعر الساحر بدنو الأجل وأعراض الشيخوخة تبتسم له في سخرية، إنها مطرقة الزمن التي تدق بعنف على أجساد كل الطغاة والجبابرة، وانطلق الساحر إلى الملك حائرًا، وجلًا، سيضيع هذا

العلم إذا ما مات، وسيخرج الناس من ضلالهم إلى النور بعد أن تتوقف أنباء الملك.

وهنا قال الساحر:

♦ أيها الملك إنني أخشى أن أموت ويضيع هذا العلم كله.

✦ وما هو الحل أيها الساحر؟؟

♦ أُريد غلامًا أيها الملك، غلامًا فطنًا ذكيًا يتعلم أمور السحر سريعًا، حتى يبقى هذا العلم وتبقى أنت الإله الأكبر دائمًا.

وتعجب الملك من بساطة الفكرة وقوتها في نفس الوقت، وأمر فورًا أن يتم إحضار غلامٌ ذكيٌ ليتعلم مِن الساحر، وذهب الحراس وأحضروا غلامًا صغيرًا بعد أن دفعوا لأهله القليل حتَّى يحضر الغلام كل يوم ليتعلم من الساحر، وكانت الأمور واضحة، بينة، سيتعلم الغلام أمور التنبؤ بالمستقبل وتسخير الأعوان من الجان، وسيكون المرآة التي يرى فيها الملك حقيقة العامة من الناس.

وانقضى اليوم الأول وعاد الغلام إلى بيته لتشرق الشمس من جديد فيذهب الغلام للقصر ليتعلم من جديد ثم تغرب ليرجع إلى بيته، وهكذا تمر الأيام والغلام لا يفعل شيئًا سوى الذهاب للتعلم مِن ثم العودة إلى بيته.

ولكن كما قالوا قديمًا، دوام الحال من المُحال، وجاء يومًا والغلام عائدًا في طريقه إذ بهِ يمرُ على كهفٍ صغير، وإذ به يسمع صوتًا غير مفهومًا يصدر منه، توجس الغلام كثيرًا ولكن فضوله دفعه لأن يدخل إلى الكهف، وتعجب العجب العُجاب مما رآه.

إنه رجلٌ يُقبّل الأرض ويسجد عليها، ثم ينهض فيرفع يديهِ إلى الأعلى ويتمتم، ثم يرجِع فيّقبل الأرض من جديد، وظل الغلام يراقبه هكذا حتى انتهى الرجل من فعلتهِ تلك.

وتساءل الغلام في حيرة:

◆ ماذا تفعل أيها الرجل؟!

فأجابه الرجل بصوتٍ هادئ:

◆ إنني أعبد ربي.

نظر له الغلام في حيرة وقال:

◆ أتقصد الملك؟

◆ لا بل أعبد ربي وربك ورب الملك.

وتعجب الغلام أكثر وأكثر، ولكن الراهب تابع حديثه قائلًا:

◆ يا بني لا يمكن للبشر أن يكونوا آلهة، فالبشر لا يخلقون شيئًا مِن الأرض، فمَن خالق الشجر والجبال والحجر، مَن الذي خلق البشر أنفسهم قبل ميلاد الملك، الملك مثلنا سيموت يومًا وسيأتي غيره، ولا يمكن أن نعبد فان، فالله الذي أعبده حي لا يموت، وهو الخالق، خالق كل شيء وأي شيء، وهو مَن يستحق العبادة والتوحيد، فلا إله غيره ولا رب سواه.

واقشعر جسد الغلام وهو يستمع لهذا الحديث الذي أذاب كل ظُلمات السحر التي تعلمها في الأيام الماضية واخترق قلبه في ثوانٍ معدودة، كلام وافق فطرته التي فطره الله عليها وقرر أن يسمع أكثر وأكثر، وتابع الرجل:

◆ الملك ما هو إلا بشر قد تجبر وانصاع الناس له، فادعى ما ليس له وما ليس فيه، فلا تغتر به كما اغتر به الناس فيُعذبك الله عذابًا شديدًا، فالله قادر وباق، والملك ضعيفٌ وفان.

ورحل الغُلام عن الرجل بعد أن عَرِف أنه من أهل التوحيد الذين هربوا من بطش وقتل الملك لهم، وأنه يعبد الله سرًا حتى يأذن الله ويموت فيذهب إليه، وذهب الغلام إلى الساحر حائرًا، مضطربًا، عقله يأبى أن يجمع بين علوم التوحيد وعلوم السحر، عقله يأبى أن يحمل الحق والباطل معًا.

وأخذ الدرس وانتهى اليوم، وفي طريقه ذهب إلى العابد كي يتعلم أكثر، وأصبح الغلام يمر كل صباح بالعابد فيتعلم منه ثم يرجع مساءً فيتعلم منه قبل أن يعود إلى بيته، وتمر الأيام ويغضب الساحر من تأخر الغلام عليه، وأصبح يمسك سوطًا ويعاقب الغلام بشدة، وما زاد البلاء أن الغلام كان أيضًا يتأخر على بيته مساءً فيعاقبه أهله على التأخير.

واحتار الغلام في أمره وقرر أن يبلغ العابد بالأمر، وجاء اليوم التالي وذهب إليه وقال:

◆ إنني أُعاقب بشدة من الساحر وأهلي بسبب تأخري عنهم.

وفكر العابد قليلًا ثم أجابه:

◆ إذا جاء الساحر ليعاقبك فقل حبسني أهلي ولم يخرجوني باكرًا، وإذا همَّ أهلك بعقابك قل لهم حبسني الساحر وكان الدرس طويلًا اليوم.

◆ ألم تخبرني أن هذا يسمى كذبًا وأن الله لا يرضى مثل هذا؟؟

أثارت كلماته إعجاب العابد الذي أجابه بابتسامة هادئة:

◆ إنها الحيلة يا بني فلا يمكنك مواجهة أحدهم الآن، فلا ضرر من أن تقول هذا لتُفلت من العقاب.

ومرت الأيام واشتدت الحيرة في قلب الغلام، فهذا عابد يخبره أن الله ربه ولا رب سواه ويجب أن يعبده، وهذا الساحر يقول له أن الملك هو الإله وينبغي أن يتقرب منه أكثر من أي شخصٍ أخر.

وبينما الغلام يسير بالطرقات إذ به يرى دابة ضخمة ثائرة قد أغلقت الطريق والناس يخشون المرور بجوارها حتى لا تقتلهم من شدة ثورتها، وهنا ثارت أفكار الغلام وقرر في قرارة نفسه أن يُنفذ شيئًا.

اقترب بهدوء من الدابة الثائرة التي حبست الناس من المرور في الطريق وحمل حجرًا صغيرًا وقال:

◆ اللهم إن كان العابد أحب إليك من الساحر فاقتل تلك الدابة بحجري هذا.

وقذف بحجره الصغير ناحية الدابة التي ما ان ارتطم بها الحجر حتى خرَّت صريعة، وكما أصاب الحجر الدابة فماتت فقد أصاب اليقين قلب الغلام فأحياه وأدرك أن العابد هو الأحق بالطاعة وأن الإله هو الله وليس الملك.

وركض الغلام ناحية العابد حتى وصل إليه، وعلى الفور صاح به:

◆ لقد قتلتُ اليوم دابة بحجرٍ صغير بعد أن استعنت بالله.

فكر العابد قليلًا ثم قال:

◆ يا بني أنت اليوم أفضل مني وسوف يكون لك شأنٌ كبيرٌ، ولن تكون ذو شأن حتى تُبتلى بلاءً كبيرًا، فإذا ابتلاك الله فلا تدل عليّ واتركني أعبد الله هنا حتى الموت فأنا لا أريد مواجهة أحد.

وخرج الغلام من عنده وقد ذاع شأنه وأصبح الناس يتحدثون عن هذا الفتى الذي قتل الدابة بحجرٍ صغير، وفي أيام قليلة أصبح الغلام يساعد الناس ويُبرئ الأكمه[1]، والأبرص[2]، ويداوي الكثير من الأمراض، واشتد حُب الناس له مع مرور الأيام خاصة أنه كان لا يتقاضى المال مِنهم، وكان كلما عالج أحدهم دعاه إلى التوحيد، ودعاه إلى عبادة الله وحده وأن الله هو الخالق ولا إله سواه.

وارتفعت شعبية الغلام وأصبح كل الناس يتحدثون عنه، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، كان هناك جليسًا للملك قد أصابه العمى مُنذ فترة كبيرة، ووصلته الأخبار أن هناك غُلامًا صغيرًا يُعالج العمى، فحمل الجليس الكثير من الهدايا والأموال وذهب إلى الغلام، جلس بين يديه وقال:

◇ أيها الغُلام كل تلك الأموال والهدايا هي لك إن أنتَ عالجتني ورددت إليّ بصري.

---

[1] الأكمه: مَن وُلد أعمى

[2] الأبرص: المصاب بالمرض الجلدي

◆ إني لا أشفي أحدًا فكله بأمر الله تعالى، فإن أنت آمنت بالله تعالى دعوته لك فشفاك.

تعجب جليس الملك كثيرًا وقال:

◇ ومن هو الله، أنا لا أعرف إلها إلا الملك.

◆ الله هو الذي يرزقك، هو الذي خلقك وخلق تلك الشمس الكبيرة، هو الذي خلق السماوات والأراضين وأمسك سماءه فلا تقع على أرضه، الله هو الذي سيحاسبك يوم القيامة، هو الشافي والمُطعِم ومستجيب الدعوات.

وظل الغلام يتحدث عن الله كثيرًا حتى قال الجليس:

◇ أشهد أن لا إله إلا الله.

وهنا رفع الغلام يديه ودعا له فرد الله بصر الجليس، وغادر الجليس من مكانه سريعًا وهو لا يُصدق أنه أصبح بصيرًا، وفي اليوم التالي، دخل الجليس على الملك كالمعتاد فتعجب الملك من رؤيته لجليسه مُبصرًا، فتساءل في حيرة:

✦ يا جليسي مَن الذي ردَ عليكَ بصرُك؟!

فأجابه جليسه بثباتٍ:

◇ ربي.

✦ تقصدني أنا!

فرد عليه الجليس بثباتٍ وقوة أكبر:

◇ لا بل ربي وربك الله.

✦ أو لك ربٌّ غيري؟!

◇ نعم ربي الله الذي خلقني وخلقك.

وهُنا اشتد غضب الملك واحمر وجهه، وصاح بجنوده وأمرهم بتعذيب جليسه عذابًا شديدًا، وراح الجنود يضربون الجليس ويعذبونه بكل السبل حتى دلهم على الغُلام، وأمر الملك فحضر الغلام:

✦ من تعبد أيها الغلام؟

◆ أعبد الله.

✦ ارجع عن دينك أيها الغلام.

◆ والله لا أرجع أبدًا.

وارتفع السوط، وراح الغلام يُضرب ضربًا شديدًا حتى خارت قواه ودلهم على الراهب، وأمر الملك فحضر الراهب العابد:

✦ من ربك أيها العابد؟؟

◆ ربي الله ولا رب لي سواه.

✦ ارجع عن دينك أيها الراهب.

◆ والله لا أرجِع أبدًا.

وهنا اشتد غضب الملك فأمر الحراس فقيدوه بشدة وأحضروا المنشار فوُضِعَ على رأسِه وشقَّه نِصفين.. فاجعة لم يحتمل رؤيتها الغلام ولا الجليس، الدماء قد سالت وجسد الرجل قد أصبح شطرين.

ونظر الملك إلى جليسه وقال:

✦ ارجع عن دينك.

◇ لا.

فزاده ذلك غضبًا وأمر بوضع المنشار على رأسه، وشطروه نصفين كما فعلوا مع العابد، كل هذا والغلام يبصر لتلك الدماء، ونظر إليه الملك وقال:

✦ ارجع عن دينك.

◆ والله لا أرجع.

وفكر الملك قليلًا بعد أن عَلِمَ مدى حب الناس للغلام، فماذا لو قتله، فقد يثور الناس عليه ثورة كبيرة، فلن يتساءل الناس عن عابد أو جليس قُتل، ولكن سيتساءلون حتما فيما قُتل الصغير.

وقرر الملك في نفسه أن يقتله قتلة مُصطنعة، حتى لا يرى الناس أن للملك يدًا في قتله، ودفعه الملك في عنف إلى بعض جنوده وأمرهم أن يذهبوا إلى جبل كذا، ويصعدوا به إلى القمة ثم يطرحوه من فوقه، فلا يعرف أحد أنه مَن قتله، وانطلق الجنود مع الغلام إلى الجبل حتَّى وصلوا إليه، وصعدوا به إلى قمته، وتراءت للغلام الأرض البعيدة، والصخور الكثيرة، فأدرك أنه الموت لامحالة، وهنا تحدث أحد الجُند قائلًا:

* ارجع عن دينك.

◆ لا والله لن أرجع.

ثم رفع الغلام يده إلى السماء قائلًا:

◆ اللهم اكفِنيهم بما شئت.

وما إن قالها حتى ارتج الجبل وتساقط من فوقه الجُند كلهم، ولم يسقط الغلام الذي نزل من فوق الجبل وراح يمشي إلى الملك بكل ثقةٍ وهدوءٍ.

رآه الملك فتعجب وتساءل في دهشة:

✦ أين الجنود؟!

◆ كفانيهم الله الذي هو أقوى منك.

واشتد إصرار الملك على قتل الغلام من جديد، فدفعه إلى جُند آخرين، وأمرهم أن يركبوا معه السفينة ويتوسطوا به البحر فيلقونه منها حتى يغرق، وركبوا سفينتهم وتوسطوا البحر، والغلام يرى الأمواج ثائرة، غاضبة، يرى الموت يُحلق فوق الأمواجِ مبتسمًا.

فتحدث كبير الجُند:

* يا غلام ارجع عن دينك.

ورفع الغلام يديه إلى السماء من جديد وقال:

◆ اللهم اكفِنيهم بما شئت.

وانقلبت السفينة رأسًا على عقب، وغرق الجُند أجمعين، وتعلق الغلام بالخشب حتى خرج من البحر وراح يمشي من جديد إلى الملك.

رآه الملك وقد زال عنه الغضب واشتد خوفه مِن هذا الغلام، وتراجع الجنود خائفين من قوة هذا الغلام، وتحدث الملك حائرًا وقد شعر بالعجز لأول مرة في حياته، خاصة بعد أن انتشر الخبر بأن الملك يحاول أن يقتل الغلام فلا يقدر، فقال الملك للغلام:

✦ ماذا أفعل بك أيها الغلام؟!

فأجابه الغلام بكل ثقة وقوة:

◆ تفعل ما آمرك به إذا أردت أن تقتُلني، وإلا لن تقدر على قتلي فأنا معي جُند مِن السماء قادرين عليك وعلى جُندك.

✦ وماذا أفعل؟؟

◆ تجمع الناس في صعيدٍ واحد، وتصلبني على جذع نخلة، ثم تأخذ سهمًا مِن كنانتي، وتضع السهم في كبد القوس وقل "بسم الله رب الغلام" وارمني بالسهم، فإنك إذا فعلت هذا قتلتني.

وأدرك الملك أنه حقًا لن يستطيع قتله إلا بهذا، وإلا فسوف يخسر جنده كلهم، وعليه أن يظهر أمام الناس بمظهر المنتصر، فأمر بجمع الناس وقيدوا الغلام في جذع النخلة، وأخذ الملك سهمًا ووضعه في القوس، وراح الناس ينظرون إلى الغلام حيارى، يتساءلون:

❞ لماذا يقتله الملك؟!"

إنهم لم يروا من الغلام إلا كل الخير، وهُنا ارتفعت صيحة الملك.

✦ "بسم الله رب الغلام".

وانطلق السهم يشق طريقه حتى استقر في صدغ الغلام[٣] وما إن اندفعت الدماء من موضع السهم وسقط الغلام صريعًا حتى صاح الناس أجمعين.

"آمنا برب الغلام"

"آمنا برب الغلام"

"آمنا برب الغلام"

هذا الرب الذي منع الملك من قتل الغلام إلا حينما استأذنه، إذًا فهذا الرب أقوى من الملك، ولم يتبين الملك كلمات الناس ورجع إلى قصره يظن أنه قد انتصر في معركته.

ولكن ما هي إلا سويعاتٍ قليلة ودخل عليه أحد الجنود قائلًا:

* غضبت أن آمن ثلاثة، فيا أيها الملك لقد آمن الناس جميعا بموت الغلام.

وما زاد هذا الخبر الملك إلا سخطًا على سخط وغضبًا على غضب، وصرخ في جنده بأن يحفروا الأخاديد، وأن يُشعلوا بها النيران العظيمة، وهكذا أطاعوه الجند كما يطيعون سيدهم في كل مكان وزمان دون أدنى عقل.

---

٣ صدغ: المكان الذي بين العين والأذن

٤ الأخاديد: جمع أخدود وهي شَقَ مستطيل محفور في الأرض تخلِّفه السُيول ومياه الأمطار.

ارتفع لهيب النيران يشق الفراغ، حتى أن الطير كان يسقط في النيران من شِدة حرارتها، وجُمع الناس إلى الأخاديد وسط الجنود وسيوفهم وأحضروا الرجل ليرغموه على ترك دينه وإن أبى كان يُطرح في قلب النيران لتلتهمه التهامًا، ثم يحضرون أخر ويُقال له "ارجع عن دينك"، فيرفض، فيُلقى به في قلب النيران وسط صرخاته المؤلمة.

وكانت هناك أعين أنثوية تُراقب ما يحدث بقلبٍ مُضطربٍ وعقلٍ مذهول، كانت امرأة تحمل صغيرها على صدرها وترضعه، لعلها تتركه وتموت فعلى الأقل تتركه شبعانًا، ورآها الجُند وجذبوها جذبًا إلى النيران، وقيل لها "ارجعي عن دينك"، وراحت تنظر لصغيرها بقلبٍ يتمزق ونفسٍ تتألم عليه، وإذ به يترك ثديها ليتحدث لها قائلًا " يا أماه اصبري فإنك على الحق"

وأدركت أنها طالما على الحق فالصبر ولا شيء سواه، وطرحها الجُند هي وصغيرها لتحترق معه، كل هذا وأعين الملك تُراقب وتشهد، ولكن كان هناك بصيرًا يُراقب من على عرشه في السماوات، وقد شهِد على كل شيء، والويل كل الويل لمن شهِد الله على جُرمه.

****

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝﴾[٥]

****

وانتهى الصوت من الحديث، وتأجج عقل أرجوان بألف ألف سؤال، أيهذي هذا الرجل صاحب الصوت، أم أن هناك خالقًا يُسمى الله، إن الملك يتغير شكله فعلًا مع مرور الزمن، الملك يأكل ويشرب مثلنا، بل ويشتهي الفتيات كل عامٍ في مسيرة المحظوظات.

وكلمة إله حقًا يجب أن تعود على شيءٍ ذو قدرة وقوة كبيرة، ليس مجرد رجلٌ يشرب ويأكل ويطيعه الجنود، وهَمَّ بنطق كلمة أخرى ولكنه توقف حينما فُتح باب الزنزانة ليرى أخر شخص يتوقع قدومه في تلك اللحظات.

---

[٥] سورة البروج

الملك سديم نفسه، كان يسد مكان الباب بجسده الطويل الممشوق ووجهه الصارم، ظل يحدق في أرجوان كثيرا ثم تحدث أخيرًا:

◈ إني أعطيك فرصة أخيرة، تقتل لتثبت ولاءك لي.

ودار مشهد الغلام في رأسه والملك يأمره أن يرجع عن دينه والغلام يرفض في ثبات، وعلى الفور أجابه:

■ لن أقتل بريئًا لمجرد القتل.

◈ كنت أعرف أنك ستقول هذا.

قالها الملك بلهجة تنم عن فعلهِ لشيء ما، ثُم سرعان ما أطل إيوان برأسه من خلف الملك ومعه حارسين، دلفا إلى الزنزانة الضيقة ووضعا بها حلقة دائرية، ثم دفعه الحارسين ليقف بداخلها، وقبل أن يفهم شيئًا كان الحارس الآخر يسكب من حوله السائل الأسود ثم حمل قنديلًا من على الحائط و...

نظر الملك إلى أرجوان في عينيه وقال:

◈ أعرف إنك تخشى النيران مُنذُ صغرك، ولهذا سببًا أعلمه أنا ولا تعلمه أنت لذا سأُعاقبك عقابًا بسيطًا.

وأشار إلى الحارس الذي أسقط المشعل أرضًا فاشتعلت النيران من كل مكان حول الحلقة الدائرية، نيران زرقاء مُلتهبة ارتفعت لتصل إلى سقف الزنزانة وراحت تدور من حول الحلقة وتزوم كالحيوان المفترس.

وانتفض قلب أرجوان، انتفض مرات ومرات والنِيران تلفَح وجهه وتزوم في أذنيه، وعاوده الرُعب مِن النيران، النيران التي يخشاها أكثر من أي شيءٍ في هذا العالم، وارتجف جسده بأكمله، تراخت قدماه وسقط وسط الحلقة في وضعٍ جنيني، تتراءى له عشرات المشاهد.

صرخة عاتية، لهيب نيران، وجوه مخيفة..

يرى الحمم تنبض كحساءٍ ناضج، يتعلق وسط الحمم..

يصرخ، يبكي، ثم..

ثم تلك النيران التي تحيط به من كل جانب كستارٍ دائري، و..

وهنا سمع الصوت الذي كان يحدثه يقول "يا أماه اصبري فإنكِ على الحق" وتراءى له مشهد المرأة وهي تقف فوق الأخدود الكبير المُلتهب بالنيران العظيمة ثابتة ترفض أن ترجِع عن دينها، ترفض الخوف من النيران لأنها تثق فيمن هو أقوى من النيران، واشتعل عقله ثانية.

كيف لامرأة أن تكون أشجع منه؟؟

كيف لامرأة ألا تخشى النيران ويخشاها هو؟؟

وبدأ يرفع رأسه ويتأمل النيران من حوله، كانت لاتزال تدور من حوله وتزوم، وكان الملك يضحك بشدة قائلًا:

◈ هيا واجه مخاوفك أيها الجبان.

وشعر وقتها ولأول مرة أن النار ليست بالقوة التي يتخيلها، هناك قوة أكبر من النار، قوة تعطي للنار القدرة على الاشتعال، قوة تعطي للنار القدرة على الإحراق والإيذاء، فلو كان صاحب الصوت على حق فقلب المرأة كان أقوى من النار لأنه فقط آمن بالله، فكيف بمن يعبد هذا الإله ويكون معه.

تخيل وقتها أنه سيملك الدنيا وما فيها، وانطفأت النيران في لحظة كما اشتعلت في لحظة، ووقف الملك سديم يراقبه في اهتمام ومن خلفه إيوان مبتسمًا ابتسامة ماكرة، خبيثة، وتحدث الملك بنبرة إعجاب في تلك اللحظة وقال:

◈ لقد أثرت إعجابي يا أرجوان، لقد تغلبت على مخاوفك ولم أكن لأتوقع هذا أبدًا

نظر إليه أرجوان نظرة غضبٍ وصدره يعلو ويهبط من فرط الجُهد وقال:

■ المرء قد يفعل المستحيل في لحظاتٍ يا أبي، أم أقول أيها الملك؟

◈ لا أهتم، فكل ما يُشغل بالي هو لماذا أصبر عليك بعد كل تلك الأفعال الحمقاء والتي لا تصدر من جواري القصر حتَّى.

▪ ربما تلك الأفعال تنتصر يومًا يا أ.. يا أيها الملك.

شرد الملك في تلك الكلمات لعله يستشف ما في عقل أرجوان ولكنه لم يفهم شيئًا، ابتسم بعدها في أسف مصطنع وقال:

◈ ستتعاتب فيما بعد، لأنك يجب أن تطمئن على أمك يا صغيري أولًا.

انخلع قلبه لذِكر كلمة أمه بتلك الطريقة الغريبة، وبدون مقدمات خرج من الزنزانة على عجالة وانطلق كالوحش الثائر تجاه بيته الصغير، وهاجت في رأسه الصغير أعاصير تفور بقطعٍ من الجُنون، أتكون أمه قد تضررت بشيءٍ، لا لا، لا يستطيع حتى أن يتخيل أنها قد أُصيبت بخدشٍ بسيط.

ووصل وقتها إلى التبة التي يجلس عليها راعي الغنم، ولأول مرة في حياته يرى نظرات الحُزن والتيه في أعين الراعي، وقتها توقف قلبه عن النبض وأدرك أن الأمور قد تغيرت إلى الأبد، وتحركت عيناه في بطءٍ شديد تجاه بيته، وهناك لمح تجمهرٍ حول المنزل الذي كانت تخرج منه خيوط من الدخان الأسود المُخيف.

تقدم في وهنٍ وقدميه تكاد أن تفقد اتزانها نحو البيت، وهناك رأى ما جعله يشيخ كمن رأى شياطين الجحيم كلها، على الأرض سكن جسد أمه وقد غطوه بغطاءٍ

شفاف قد تلطخ بالدماء، نعم يعرفها، ويعرف كل تفاصيل جسدها، بل ويعرف لون دمائها.

وقتها لم تتحمل قدماه ذلك الهول وسقط أرضًا، تجمع حوله الناس آسفين لما حدث، أما هو فقد كان يزحف كالمشلول تجاه الجثمان وقد ارتسمت على وجهه نظرة ذهول عجيبة، جعلت كل من يراه يظن أنه قد فقد عقله للأبد.

اقترب من الجثمان وكشف وجهه وأعينه المتأججة بالحُمرة تفيض بالدمع، حُمرة الحُزن والغضب والصدمة، تحسس وجه أمه بأنامله في رقة واقترب من أذنيها ثم همس بكلماتٍ لم يسمعها أحدًا، ثم احتضن الجثمان كالطفل الصغير ووضع رأسه عِند صَدر أمه وأغمض عينيه تمامًا.

استنشق رائحة الجثمان بعمقٍ ثم تاه في وادٍ من الضباب القاتم، الثقيل، حتى أفكاره غرقت في ذاك الوادي الغريب، لا يدري كم بقي على حاله، طويلة هي المُدة أم قصيرة، ولكنه شعر ببعضٍ من الهرج من حوله.

لم يفتح عينيه أو حتى يتحرك، كل ما فعله أنه ضم الجسد لصدره بقوة كي يحميه حتى من ضجيج الكلمات، ولكنهم أبوا أن يتركوه معها، شعر بهزة قوية تهزه هزًا، نظر بأعين تائهة لصاحبها فوجده زعيم حراس الملك، وبجواره كان الملك سديم يقف ناظرًا إليه في صمتٍ مَهيب، يراقبه في اهتمام، يحاول أن يستشعر ردة فعله

والتي قد تغير مجرى الكثير من الأمور، ولكن في عقل أرجوان كانت هناك حممًا تغلي، تتراءى أمام ناظريه مشاهد تخيلية، يرى أمه تنظر بفزعٍ تجاه رعاة الإله الذين لم يرحموها أبدًا، يرى الخنجر وهو يخترق جسدها في قسوة بالغة، يسمع شهقتها ويشعر بألمها، يرى الحياة وقد أخبرته أنها النهاية، لن يمكنه أن يحيا يومًا واحدًا، إلا لهدفٍ واحد ليس إلا، وقتها تحدث الملك بصوته القوي قائلًا:

◈ لقد كانت امرأة شجاعة، رضيت بأن تُضحي بنفسِها كي يرضى عنا إله النار، فهنيئا لها و...

ثم نظر نظرات خاصة لأرجوان وقال:

◈ ولولدها.

ثم شدد على كلماته في قسوة وقال:

◈ أليس كذلك يا أرجوان؟؟

وقتها رفع الفتى نظره إليه وقال بصوتٍ متهدج:

▪ نعم أيها الملك، لقد كانت امرأة شجاعة وتستحق التكريم.

ونهض من مجلسه كي تتم مراسم حرق الجُثة لتذهب إلى عالم الخلود، وقتها وما إن نهض أقسم في نفسه ألا يُذرف الدمع مجددًا إلا بعد أن يتم ما همس به في أذن الجثمان.

اقترب بعض الجنود وحاولوا حمل الجثمان ولكن نظراته الغاضبة جعلتهم يتراجعون في رهبة، حمل الجثمان بين يديه ودلف به إلى أحد البيوت القريبة، وبالأخص بيت السيدة سيلين صاحبة أمه التي استقبلته بالدموع الغزيرة والكلمات المرتعشة من الحُزن، ثم عطر الجثمان بالعِطر والطِيب وهو صامتًا كمن لم يعرف الكلام منذ ولادته.

وعند مغيب الشمس كان يضع جثمان أمه برفقٍ في حفرة في باطن الجبل تنهمر فيها الحمم المُلتهبة، وأمام ناظريه ذاب جسد أمه تمامًا وتبخر كأنه لم يكن، وسقط هو أرضًا بعد أن نفذت قواه تمامًا.

****

في اليوم التالي كان يقف أمام حطام منزله يُراقب شروق الشمس، أو هكذا يظن من يراه، ولكنه كان يراقب الجبل في ثباتٍ مُخيف، هذا الجبل الذي تصدر منه صيحات إله النار كل دورة قمرية، وينزل من أعلاه الرعاة القساة الذين يدمرون كل شيء وأي شيء.

لا يدري لِما تذكر وقتها ذاك الرجل الذي حدثه في الزنزانة، شعر وقتها بقوة جذب رهيبة تدفعه كي يتحدث مع هذا الرجل من جديد، لعله يجد عِنده إجابات، أو ربما وسيلة للخلاص من كل شيء.

وسيلة لغسل يديه من دماء أمه، وقلبه من الحُزن لأنه تركها تواجه مصيرها وحدها، فلو تواجد يومها ما كان تركهم يقتلونها ولو حارب الإله نفسه، فالإله الذي يُرسل رعاياه ليقتلوا دونما شفقة لا يستحق الألوهية، ولو كان هو خالقنا ويستحل دمائنا بتلك البساطة فهو حتمًا يستحق المقاومة وعدم الطاعة.

اغتسل أمام البيت المُحطم وانطلق في طريقه تجاه القصر، وهناك وعلى نفس التبة وجده، راعي الغنم، ولكنه كان ينشد لحنًا حزينًا في هذا الصباح، لم يعد يذكر اسم حور، بل كان يذكر اسم ذات الثغر المُتبسمِ، نعم إنه يرثي أمه القتيلة.

حياه بابتسامة باهتة، ممتنًا لما يفعله، وأكمل المسير تجاه القصر حتى وصل إليه، وهناك ومن إحدى الشُرف كانت هيلانة تراقبه وقلبها ينبض بالألم لأجله، ولكن

بالأسفل كان إيوان أخيه ينتظره بابتسامة غامضة، غريبة، تخطاه أرجوان في هدوء مما أثار حنقه ثم تقدم ناحية ساحة العرش، وهناك كان سديم قابع على عرشه كأنه قد نُحت من نفس المادة التي صُنع مِنها العرش، حياه أرجوان تحية الجنود وانتظر حديثه، ابتسم الملك ابتسامة واسعة وقال:

◈ لم أعد أثق بك يا أرجوان.

▪ وماذا أفعل كي تثق بي أيها الملك غير القتل؟؟

◈ لم أعتد أن يُملي عليَّ أحدهم شروطًا، ولكني سأضعك في اختبارٍ قصير كي نرى مدى انتمائك لنا، واعلم جيدًا أنك لن ترحل ليلًا عن القصر من جديد سوى بأوامري.

ضرب أرجوان الأرض بقدمه في قوة ليُلقي التحية للملك، ثم التفت ناحية الخارج وانطلق تجاه الأسفل، حيث زنزانة الرجل الغريب الذي حدثه بالأمس، دلف من السلم الجانبي بعيدًا عن أعين الملك والحراس وهبط إلى الأسفل، عبر الممرات الضيقة حتى وصل إلى الزنزانة التي احتوته ليلة الأمس.

ظل يتأملها قليلًا ثم ذهب ببصره تجاه الزنزانة المجاورة له، ومن خلال فتحة الباب نظر إلى الداخل، وكانت الصدمة حينما لم يجد أحدًا في تلك الزنزانة، استند برأسه على الحائط يحاول أن يتذكر، هل سمع بالفعل صوتًا وقص عليه تلك الحكاية أم

أنه كان يتوهم، لا لم يكن يتوهم، في تلك اللحظات ظهر أحد الحراس ووقف يتطلع إلى أرجوان في تعجب من نزوله لهذا المكان، بادره أرجوان بالحديث قائلًا:

▪ أين ذاكَ المسجون الذي كان هنا بالأمس؟!

نظر الحارس للزنزانة في تعجبٍ أكبر وقال:

* سيدي تلك الزنزانة فارغة منذ دورتين قمريتين على الأقل.

حدثه أرجوان في عصبية قائلًا:

▪ أمتأكدٌ أنت من حديثك هذا؟!

* نعم يا سيدي.

▪ حسنًا.

رحل أرجوان من المكان كله وهو يكاد يجن من فرط التفكير، ومن بعيد كانت أعين إيوان تراقبه في تحفزٍ وإصرارٍ، وكأنه يترقب حدوث أمرٍ جلل سيحدث في القريب العاجل.

ولكن أرجوان لم يكن يهتم بشيءٍ، فبعد موت أمه لم تعد تعني الحياة له شيئًا، ومع ذلك كان بداخله بركانٌ يغلي، يود أن يدفع عمره كله مقابل أن يواجه رعاة الإله، وبالأخص ذاك الراعي الذي طعن والدته دونما شفقة.

في تلك الأثناء وصل إلى التبة التي يجلس عليه راعي الغنم، كان لايزال جالسًا يُنشد ذاك اللحن الحزين رثاءً لذاتِ الفم المتبسِّمِ أم أرجوان، وفي صمتٍ جلس بجواره أرجوان يُفكر، لم يتوقف الراعي وظل يُكمل الغناء:

ومع شروق الشمسِ كانت تُشرقُ

ومن عينيها كان النور يخرجُ

وبابتسامةٍ كانت الحياة تبتهجُ

حتى لقبوها بذات الثغرِ المتبسمِ

وقتها فقط سالت الدموع في صمتٍ تام من أعين أرجوان، وخان عهده مع نفسه حينما قال أنه لن يبكي حتَّى يحقق وعده لأمه، نظر وقتها للراعي من بين دموعه وقال:

▪ أتعرف أيها الراعي أنني أود أن أقتُلك.

توقف الراعي ونظر له في خوفٍ وتوتر ليتابع هو:

▪ فأنت تحمل لفظ الراعي كما يحملونه هم، ولكنك ترعى الأغنام، أما هُم فيرعون الشر والقتل والدماء، أنت تخرج مع شروق الشمس، وهم يخرجون مع صرخات الفزع حينما يحل الظلام.

✶ ولما لا تقتلهم هم؟!

قالها الراعي بصوتٍ يغني ويمد في الأحرف لينظر له أرجوان في حيرة ويقول:

▪ كيف؟!

✶ أباك الملك يعرف كيف، حاول أن تعرف منه، فهو يعرف كل شيء.

لا يدري لما أضاءت كلمات الراعي في ذهنه الكثير من الأمور المَخفية، ترك الراعي سريعًا وانطلق تجاه القصر، كانت عيناه مُطفأة كأعين الموتى، وجسده يتحرك بطريقة مُخيفة، وفي ساحة القصر رأى المدرب وإيوان يتصارعان، وما إن رأوه حتى توقفا ولمح ابتسامة سخرية من المدرب تجاهه، كأنه يعايره بما فعله به حينما تغلب عليه.

ولكن نظرة أرجوان المخيفة أسكتته تمامًا، بل وجعلته ينظر أرضًا وجلًا، ودلف أرجوان على الملك، تقدم منه في هدوءٍ وقال:

▪ لي عِندك حاجة يا أبي.

تألقت أعين الملك سديم وقال:

◈ ماذا تريد أن تعرف يا فتاي الصغير؟؟

▪ أُريد أن أعرف كل شيٍ عن إله النار وعن الرعاة، أريد أن أرث مِنك هذا الشرف العظيم، شرف خدمة إله النار.

وقتها زادت أعين الملك بريقًا وقال:

◈ وما أدراني أنكَ تريد هذا، بل كيف تريده وأنتَ لا تُطيعني من الأساس؟!

▪ سأعقد معكَ اتفاقًا أيها الملك.

◈ وما هو يا أرجوان؟؟

▪ علمني كل شيٍ وأعدِك إن فعلت أن أقتل لأجلِك مائة من أهل هذا الوادي، وتلك كلمتي لكَ أيها الملك.

اتسعت ابتسامة الملك في وحشية وقال:

◈ وأنا سأفعل يا أرجوان، وسأخبرك بقصة صغيرة أولًا، ثم ستذهب في رحلةٍ قصيرة كي تعرف الكثير عن النار وحُراسها ورعاتها وحورياتها.

ظهرت علامات التعجب على ملامح أرجوان ولكنه لم يُعقِّب، لحظتها تراجع الملك بظهره للخلف وصمت طويلًا، ثم بدأ يسترسل حديثه بطريقة مَهيبة.

****

النار جاءت ولم يأتي قبلها شيئًا، ثم جاء الهواء وجاء التُراب ثم هبط عليه الماء واختلط به، وبعد زمنٍ طويل بدأ التراب يتشكل على هيئة بشرية مُكتملة القوام، وبدأ الهواء يشتد مِن حوله ويتسارع حتى تحول إلى رياحٍ قوية راحت تخترق الجسد الطيني وتتسبب له في حركاتٍ عشوائية.

وتسلل الماء من أسفل الطين الصلب ليبث فيه الليونة والنعومة، كل هذا والنار كانت تتابعهم في تعجب وتحذرهم مِن هذا المخلوق الذي يصنعونه، ولكنهم لم يستمعوا لها أبدًا، حتى حدثت الكارثة حينما تحرك هذا البشري وبدأ يمشي على تِلك الأرض دون أية قيود، تجاهلته النار تمامًا وظلت مكانها تفور في صمت.

ولكن هذا البشري لم يكتفِ من المسير، بل بدأ يأخذ من الماء ليشرب بكل همجية، ثم هاجم الهواء ليستنشق منه ويأخذ منه القوة ليتحرك أكثر، ثم وبأدواتٍ حادة راح يضرب التراب ليأخذ من قوته ويزرع الطعام فيه، حاولت المياه أن توقفه ولكنها لم تستطع، ثم حاول التراب ومن بعده الهواء ولكنهما فشلا في النهاية، واستسلموا جميعهم لهذا البشري الذي راح يعيث الفساد ويأخذ منهم لنفسه في جشعٍ تام.

وقتها فقط لجأوا جميعهم إلى النَّار، ولكن وقتها كان البشري قد تكاثر وأصبحت الغلبة عليه صعبة، بل مستحيلة، خاصة أنه استطاع معرفة الطُرق الخاصة للسيطرة على النار، وجاءت الفكرة الجهنمية للنار.

بدأت تتشكل على هيئة كائناتٍ يُشبهون في تكوينهم هذا البشري، وطلبت منهم محاربة هذا النسل الذي يُفسد في الأرض ويستغل كل شيءٍ فيها لنفسه، وقتها قامت الحرب، حرب جبارة، بين كائنات النار ونسل هذا البشري، ولكن هذا النسل كان عبقريًا بحق، فهو مزيج من الهواء والماء والتراب، أما هم فقد جاءوا من النارِ فقط، تغلب عليهم بالماء وقتلهم، ودفن آخرون في التراب وقتلهم، ونثر لهيب آخرون بالهواء.

حتى أن النار خسرت كثيرًا من جُنودِها، ولكن النار لم تكن لتستسلم لهذا الكائن ليسود الأرض بعدما كانت هي من قبل، وأخرجت من رحمِها جنودًا آخرين بعدما استعانت بالتراب، وخرج جنودًا ترابيين بخواص نارية مُلتهبة، كان منهم الذكور ومنهم الإناث حتى يتناسلوا كما فعل البشري، وقامت حربٌ أشد ضراوة من سابقتها، بجنودٍ أشد قوة وأكثر ليونة، وقتها استطاعت جنود النار كشف ثغرات البشري ونسله، أولها هو استدراج بعضهم ووعدهم بثروات الأرض والسُلطة إن ساعدوهم على بني جلدتهم.

وبالفعل استدرجوا الكثير منهم، وكانت الغلبةُ للنار وأهلها، ومن تبقى من البشر اندمج مع النار في كهوفها وتزوج من أبنائها، ومَن رفض مِنهم أصبح عبدًا للنار التي تستحق أن تملك زمام تلك الأرض، فهي الأكثر قوة والأشد بأسًا، ومع مرور الزمن تباين أهل النار إلى أصنافٍ كثيرة؛ مِنهم الحوريات، والرعاة والـحُرَّاس.

وبدأت الحكاية تأخذ طورًا أشد قوةً وأعظم خطرًا، حينما اشتعلت أحد الحروب بين كائنات النار والبشر في هذا الوادي، واجتاح النارِيين تلك الأرض كلها، وقتها كُنت أنا صغيرًا لا أملك من أمر نفسي شيئًا.

وجدني أحد جنود النار المُخلصين، وأخذوني معهم كغنيمة من غنائم الحرب، أخذوني إلى النارِ نفسها حتى تحكم في أمري، النار التي رأت في عيناي الإخلاص والقُوة والهيبة، وقررت النار أن تضعني في اختبارٍ بسيط، لترى هل أنتمي للنار وأهلها وبداخلي نزعة القوة والكبرياء، أم أنني لا أستحق سوى المكوث مع البشر العبيد.

جلبوني في يومٍ يجتمع فيه أهل النار، ووضعوا عن يساري قِدرًا به حممًا تغلي، ووضعوا عن يميني كوبًا من الماء البارد، وترقبوا اختياري، ولكن نزعتي الملتهبة اختارت قِدر النار، وتفهمت النار أنني سأكون مُخلصًا لأبعدِ مدى.

وبقيت هناك لسنواتٍ بين أهل النار، أتعلم منهم، وأزداد انتماءً لنيران الجحيم، حتى وقع الاختيار عليَّ وقررت النار أن تجعلني خادمًا لها في هذا الوادي، خادمًا مُخلصًا وملكٌ على تلك الأرض، أحكم بأمر النار، وأمنع طغيان البشر، وأبسط سُلطة النيران في كل مكان.

ومُنذُ ذلك اليومِ وأصبحت الملك سديم، قائد الجيوش، وصاحب الكلمة العُليا، الملك الذي يأمر فيُطاع، وينهي فينتهون، ويتحدث فيسمعون، ويحكم فيُنَفذ حُكمه.

حتى جاء والدك وانضم لجنودي، بل وأصبح قائدًا للجنود، والدك الذي ذاع صيته هناك في أرض النار، وكانت كل الأمور تسير بطريقة مُيسرة، حتى تمرد أحد البشر، بل وانضم له فصيلٌ كامل منهم.

يُريدون أن يبسطوا نفوذهم على الأرض، بل وعلى النار نفسها، النار التي تستحق المُلك والقوة والعبادة، أطلقوا على أنفِسهم المُسالمون، وقتها استطلعنا أمرهم كثيرًا، وخرجت عليهم الغارات النارية من جنودنا، وعلى رأسهم أبيكَ، ولكنهم غدروا به في حربٍ من تلك الحروب وقتلوه، وبعدها قتلوا والد إيوان، ثم والد هيلانة، وقتها شعرت بغضبٍ بالغًا، وخرجت عليهم بكل جنودي، قتلت منهم من قتلت،

وهرب منهم من هرب، ووجدتك أنتَ وإيوان وهيلانة، وقررت إكرامًا لوالدك أن تكون في قصري، مُحاربًا وابنا ترث مني القوة وخدمة إله النار.

ولكنك كنت تذكرني بهم مرارًا، ترفض الامتثال لهويتك، مُحارب من محاربين النار، تشفق على البشر، لا توَد قتلهم، أو تعذيبهم، في حين أن الثُلة المشتتة من المُسالمون يهاجموننا كل حينٍ ويقتلون منا الجنود، ولازالوا يفعلون هذا حتى تلك اللحظات، ولكن يا أرجوان أعدك ألا أتركهم يفعلون هذا كثيرًا، أعدك أنا خادم النار أن أبيدهم عن بَكرة أبيهم عما قريب، ولك كلمتي أيها المُحارب.

نعم كلمتي أنا "الملك سديم".

****

انتهى الملك سديم من حديثه وأرجوان من أمامه مصدومًا، لا يستوعب كل ما قِيل، هل يصدق هذا المَلك في حديثه، هل هو من أبناء محاربين النار، هل يجب أن يتخذ البشر أعداءً له؟؟ ولماذا يصبر عليه الملك كل تلك الفترة؟؟

وضع يده على مؤخرة رأسه وحركها بعنفٍ كي تهدأ ثورة أفكاره ثم قال في هدوءٍ:

▪ حدثتني عن رحلةٍ سأخوضها أيها الملك.

◈ نعم ستذهب إليها عاجلًا غير آجلًا.

▪ وإلى أين تلك الرحلة أيها الملك؟!

◈ ستذهب إلى أرض النار، لتنتمي إليها، وتعرف هويتك، وتعاهدها على الطاعة، تغتسل روحك بلهيبها، وتشتعل يديك بحرارتها، ثم تعود لتحكم معي، تعود لتُصبح من حراسها، وربما من رُعاتها، وتُصبح هجينًا بين أهل النار والطين، خادمًا مُخلصًا، ومُحاربًا لا يُشق له غبار.

تحدث وقد لمعت عيناهُ في قوةٍ قائلًا:

▪ إن كانت تلك أوامرك أيها الملك فأنا على أتم الاستعداد للذهاب إلى تلك الرحلة في القريب العاجل.

◈ نعم ستكون في القريب العاجل، ستكون بعد دقائقٍ فقط من الآن أيها الصغير.

وانتفض بدنه من فرط إثارته وثورة أفكاره، هل سيواجه النار ليثأر لأمه، أم سيعرف هويته الحقيقية هُناك وينتمي للنار التي يجب أن ينتمي إليها، أيا كان فهناك قد يجد إجابات لكل شيءٍ.

وهُنا أخرج الملك قارورة صغيرة بها سائلًا شفافًا وطلب منه أن يشرب مِنها، تردد قليلًا ولكن نظرات الملك الصارمة جعلته يشرب سريعًا، كان مذاقها حامضيًا غريبًا ولكنه لم يكن سيئا، ثم أخذت الأفكار تضرب رأسه.

سيعرف لما يُشفق على البشر ولا يقدِر على ايذائهم، هناك سيعرف سبب رقة قلبه، هُناك سيعرف أكان الملك صادقًا أم أن العجوز الذي سمعه في الزنزانة كان الأشد صِدقًا، نعم هو يحتاج لتلك الرحلة أكثر من أي شيءٍ في حياته، حتى لو كانت حياته هي القُربان الذي يقدمه لأجل المعرفة، هل الملك صادقًا في حديثه والنار تستحق العبادة، أم أن هُناك من هو أقوى من النار؟؟

ورُبما هُناك سيجد إجابة للسؤال الأغرب، لماذا يخشى النار بتلك الطريقة الغريبة، نعم لابد من تلك الرحلة مهما كان، وقتها وقبل مرور ساعةٍ واحدة بلغه الملك في صرامة أن يستعد لخوض الرحلة، فإما أن يستسلم هُناك لهويته وينتمي إلى النار، أو يتخلص مِنها للأبد، وفي ساحة القصر سمع صوتًا عجيبًا يصدر منها، كان أحد الحراس يمسك بوقًا وينفخ فيه بكل حماسة، اصطف وقتها صفين من الجنود.

وخرج أحد الخدم ممسكًا بفرسٍ عليه بعض الزاد، وفي شرفة القصر وقفت هيلانة بجمالها الطاغي تُراقب ما يحدث في حزنٍ بالغ بعد أن بلغها خبر رحيل أرجوان في إحدى الرحلات المُكلفة من الملك.

شعرت وقتها أن قلبها سيخرج من مكانه من فرط الضيق، نظر إليها نظرة غريبة توحي بالكثير، شعرت بأنه يعِدها بأنه لن يتركها، يُؤكد ظنونها بأنه يحمل لها في قلبه أكثر مما تحمل هي على الرغم من عدم بوح أحد الطرفين بذلك، أما إيوان فوقف في ساحة القصر مفرود القامة يتابع بعينيه الضيقة كل ما يدور من حوله في باهتمامٍ بالغٍ، ثم نفخ الحارس من جديد، وأشار الملك لأرجوان أن ينطلق إلى نهاية الوادي، إلى بحيرة الضباب، وهُناك سيجد قاربًا صغيرًا سيركبه، ثم عليه أن يجد طريقه بنفسه ليجد الخلاص، ليجد هويته الحقيقية.

ركب الفرس وفي عينيه نظرات البأس والشِدة، ثم انطلق في طريقه متجهًا تجاه بحيرة الضباب، وما إن خرج من القصر حتى أشار الملك لإيوان، إيوان الذي أخذ معه سِربًا من الجنود وخرج من بوابة القصر الخلفية وانطلق خلف أرجوان.

في تلك اللحظات عاد الملك إلى ساحة القصر وجلس على عرشه في ثباتٍ رهيب، وراح يتذكر أحداثًا مرت عليها سنواتٍ طوال، أحداثٍ غريبة كادت أن تقلب حال الوادي كله، يتذكر من تجرأ وقتل، من استطاع أن يهدم أسطورة الرعاة، ولولا

تلك الحورية وقتها لسقط من مكانته للأبد، وإن كان أرجوان يريد أن يأخذ نفس المسير فلتكن نهايته في نفس المكان، في قلب الحمم، ولكنه يجب أن يتناسى أمره ولو قليلًا ويتركه يسير في طريقه.

يتركه يخوض رحلته ليتخذ القرار الأخير، فإما أن يكون له إيوانًا جديدًا، أو أرجوانًا مُتمردًا، ووقتها لن يعود حتى ينتقم منه، سيكون في عداد الأموات، في تلك الأثناء دلف أحد الحُراس تجاه الملك وهو يلهث في عنفٍ، راقبه الملك في غضبٍ وقال:

◈ ما بك أيها الجُندي؟!

* المُسالمون أيها الملك قد قتلوا أحد جنودنا عِند مدخل كهف جهنم.

ضرب الملك بقبضته في غضبٍ من جديد، لقد تجرأوا واقتربوا كثيرًا من الكهف، لا يهابون من بداخله، ولا يتوقفون عن المضي قدمًا تجاه حلمهم، ولكنه لن يفرط في سلطانه بتلك السهولة، سينتظر قليلًا ثم سيجد الوسيلة، ينتظر فقط انتهاء رحلة أرجوان، ثم سيذهب إلى الكهف بنفسه ليجدد العهد، ليقابل الحورية، ورُبما ليفعل أكثر من هذا، الأهم هو أن ينتظر الآن، ينتظر لعله يكسب أرجوان في صفه، يكسب الطفل صاحب ال....

****

انطلق أرجوان بالفرس في مشهدٍ يثير القلوب، كأن الفروسية قد خُلقت فقط لأجل هذا الشاب، تفادى طريق بيته لأنه لا يريد حتَّى أن يراه، لا وقت للأحزان ولا للنظر إلى الماضي، فمن راقب الماضي سقط أسيرًا في زنزانة الذِكريات وفقد حاضره ومستقبله، وهو سيحارب الحاضر ليجد في المستقبل الإجابات.

وراح الفرس يعبر التلال الصغيرة والمنحنيات الصخرية في الوادي حتى تخطاه كله في وقتٍ قياسي، ثم توقف الفرس على مشارف الأرض الحمراء، القاحلة، وجلس أرجوان على فرسه يُراقب من أمامه تلك الأرض الشاسعة على مد البصر، الأرض الحمراء الصخرية المستوية، وكأنها بحيرة من الدماء قد تجمدت، فحفظت لونها وسِرها للأبد، وكز أرجوان الفرس بكعبيه كي يُكمل المسير ولكن الفرس أبى أن يتحرك خطوة في تلك الأرض، كأن أسلافه قد ابتلعتهم تلك الأرض مُنذُ سنواتٍ طوال وأصبحت مُحرمة على معشر الخيل.

حاول من جديد ولكن الفَرس ثار ووقف على قائمتيه الخلفيتين وراح يتحرك في عشوائية شديدة، وكان لابد من قراءة العلامات سريعًا، والعلامة الأولى تقول أن الفرس لن يُكمل المسير وأنها محطته الأخيرة في هذا المكان، نزل من على الفرس وودعه بضربة خفيفة على رأسه لينطلق الفرس عائدًا، أما هو فوقف في مواجهة أرض الدماء تلك، يتنفس من هوائها الثقيل، ويراقبها بأعين حمراء بلون الأرض.

وعلى الفور انطلق ناحية البحيرة، البحيرة التي كان يعي جيدًا أنها في نهاية تلك الأرض، وتقدم خطوته الأولى على تلك الأرض الصلبة، القاسية، ولولا ما كان يلبسه في قدميه لتمزقت من حِدة نتوء تلك الأرض الصخرية.

كان الجو مُقبضًا والهواء ثقيلًا جدًا، كأنك تتقدم إلى نهاية العالم، حيث لا وجود للهواء في هذا المكان، ومن حوله راح الصمت يلفُّه لفًّا، كأنه الناجي الوحيد من كارثة أهلكت كل أهل الأرض.

المكان حقّا كان مثيرًا لكل الهواجس والأفكار السلبية لديه، كأنك دلفت إلى أرض الانتحار، وقبل أن يغرق بأفكاره أكثر لمحها، الكثير منها عن يمينه ويساره، جماجم بشرية وعظام متحطمة ومتيبسة مع الصخر، كأنها نُحتت منه، وامتزجت به إلى الأبد، الأمر الذي هز قلبه بين صدره، وكأنك دلفت إلى عالم الهلاك والفناء.

أكمل مسيرهُ وهو يحاول أن يضع وجه أمه نصب عينيه حتى لا يتشتت بأي شيٍ آخر، دقائق فقط من المسير وبدأ يرى الكثير من الأشجار المُتحجرةِ الحمراء، كانت قصيرة وفروعها منتصبة كأيادي الوحوش التي ترجو اختطاف ضحاياها لتمزيقهم، حتَّى أجسام الأشجار كانت وكأنها تصرخ في ثورةٍ وتحاول أن تطوله بأيديها، كل هذا كان يأكل من شجاعته وغضبه ويبث في نفسه خوفًا بلا حدود، خاصة أنه كان مضطرًا أن يسير بين الأشجار بعدما كثُرت من حوله وأصبحت في

كل مكان، تحاشى النظر إلى فروعها وأجسامها المتحجرة وأكمل المسير وهو يتذكر صوت راعي الغنم وهو يغني على التلة كل صباح، ولكن حبل أفكاره تمزق من جديد حينما جاءته تلك الهمسات من بين الأشجار.

همساتٍ خافتة، غريبة، وكأن أشباح الجحيم يحذرونك من الاقتراب أكثر، أو كأنك دلفت إلى أرض الأموات وهذا صوتهم وهم يحذرونك من التواجد في أرضهم، ولكنه كان يعي أنه قد ولى زمان التراجع، وأن المضي قدمًا قد أصبح قدرًا وليس اختيارًا.

ظل بين تلك الهمسات كثيرًا، يحاول أن يتجاهلها دون جدوى، حتى شعر أنه على حافة الجنون بين كل هذا، لدرجة أنه أصبح يُخيل إليه أن الأشجار تتحرك، وأن الأيادي تحاول أن تقبض عليه لتُمزق لحمه وتطحن عظامه وتتركها تتحجر بين مسام تلك الأرض الصخرية المُخيفة.

وبعناءٍ أكبر أكمل سيرهُ بينهما وهو لا يفهم سِر عدم رؤيته لكل تلك الأشجار وهو على فرسه منذ قليل، ولكن يبدو أن كل شيءٍ هنا غير عقلانيًا بالمرة، خاصة حينما سمع صوتًا جعله ينتفض ويُشهر سيفه في لحظة.

كان صوتًا يُشبه أصوات الضفادع، ولكنه أشد خشونة وأعلى صوتًا، وما إن التفت لمصدر الصوت حتى رأى تلك الأعين الدموية وهي تُحملق به في ثباتٍ رهيب،

كأنها تحاول أن تقتله بنظراتها، قبض على سيفه بقوةٍ أكبر وهو يرى صاحب العينين يقترب منه أكثر حتى رآه رؤي العين.

كان ضُفدعًا ضخمًا يتخطاه طولًا، يسير على قائمتيه الخلفيتين كالبشر، حرك سيفه أمام تلك الأعين الجهنمية كي يُخيفه، ولكن الضُفدع كان وكأنه لا يرى السيف، بل لا يرى سوى أعين أرجوان الجاحظة بمزيجٍ من الذهول والرُعب، ثم وبنفس الصوت الجهنمي نطق الضُفدع بتلك الكلمات:

"لا تُغضب النار وإلا ستهلك".

ثم قفز قفزة هائلة تخطى بها مسافة كبيرة واختفي بين الأشجار من جديد، تمالك أرجوان قلبه الذي كاد يثب من مكانه وراح يركض مِن هذا المكان المُرعب، ظل يركض كالهِر الخائف من العصا بلا هدفٍ حتى تخطى تلك الأشجار بعد عناءٍ كبير وخوفٍ بلا حدود.

ومن بعيد رآها، إنها البحيرة، لقد تخطى هذا الجحيم أخيرًا، وقبل أن يخطو نصف خطوة رأى الكثير من الأطياف البيضاء تخرج من شقوق الأرض، تراجع في فزعٍ وحاول أن يضربهم بسيفه، ولكن السيف كان يخترق أجسادهم دون أن يمسهم بسوء، وعلى الفور راحت الأطياف تدور من حوله كأسراب النحل.

وراح هو يلتفت في كل الاتجاهات كالمجنون، يرجو ألا يُصاب بأذى في هذا الهول المُخيف، وبدأت تلك الأطياف تُردد بصوتٍ هامس:

"الطاعة للنار"

"الطاعة للنار"

لا يدري لما شعر وقتها بأنه سيتراجع ويُعلن انتمائه لأهل النار فورًا، ولكن صورة أمه ظهرت له من بين تلك الأطياف لتذكره بأنها تستحق أن يُحارب لأجلها، بأن يواجه الكون كله لو تطلب الأمر.

وبكل ما في نفسه من مشاعر مخيفة التقط من الأرض حجرًا صلبًا وقذف به تجاه الأطياف، والغريب أنها تراجعت سريعًا، وهذا أثار في نفسه الكثير من الشجاعة ليكرر الفعل كثيرًا، وكان كلما يفعلها تتراجع الأطياف وتدخل في مسام الأرضِ من جديد، وما إن دلف آخرهم في الأرض حتى انطلق يعدو تجاه البحيرة، وما إن وصل إليها حتى سقط أرضًا من فرط الخوف والجُهد الذي بذله جراء المرور من تلك الأرض الغريبة.

دقائقٍ مرت وهو لا يقوى على الحِراك، ولكنه ما إن استكان قليلًا حتى نهض سريعًا ليُتم ما بدأه، ووقف يواجه بحيرة الضباب بأعين حائرة، تائهة، خائفة، البحيرة من أمامه مكسوة بضبابٍ أزرق ثقيل، شكلها يبث الرعب في قلوب أعتى

الرجال، كأنها الفجوة التي تفصل بين عالم البشر وعالم الشر الخالص والجحيم الأكبر.

كأنها البوابة التي ستدخل مِنها لتفنى حياتكَ كلها، ضباب يُشبه القبة العملاقة التي تُحيط بالبحيرة من كل جانب، وكلما دققت النظر تشعر بأن الضباب يتموج، كأنه فكٍ عملاق يفتت الطعام بأسنانه الحادة، وعن يمينه سكن القارب الصغير، وعن جواره كانت هناك ثلاثة قواربٍ أخرى.

اتجه نحو أحدهما ثم وقف قليلًا يُفكر، وسرعان ما ربط كل القوارب بقاربه وأبحر في البحيرة ليقطع كل السُبل من أن يتبعه أحد، خاصة ذلك الضفدع أو تلك الأطياف الغريبة.

وراح يجدف بالمجاديف المتهالكة ليخترق الضباب أكثر وأكثر، وسرعان ما ابتلعه الضباب تمامًا، فأصبح وكأنه في متاهة زرقاء، لا يرى سوى ذاك اللون الثقيل في كل مكان، ولكن يداه كانتا ثابتتين وهما تضربان المياه بالمجاديف في اتجاهٍ ثابت، إلى الأمام مهما حدث، فهذا ما يعرفه عن الجزيرة.

ثم وبعد دقائقٍ طوال بدأت المياه تتحرك من حوله في اندفاعٍ من الأسفل إلى الأعلى، وانقبض قلبه من جديد، الأمر كله لا يُبشر بالخير أبدًا، خاصة في هذا المكان الذي يُشعرك بأنك لست على الأرض من الأساس.

ثم لمح تلك الرأس تطل عليه من أسفل المياه، وتراجع مرتعبًا كمن مسته صاعقة من السماء، لقد كانت رأس امرأة بشعرٍ أحمر طويل وقرون ضخمة كالثِيران، جلس على أرضية القارب يرتجف كمن يحتضر، يحاول أن يُغذي قلبه ببعض الشجاعة ولكن من أين له بها، لحظتها فقط اهتز القارب بقوة، كأن هناك من يضربه بعنفٍ من الأسفل، وكأن الفاعل يود أن يلتقي به أسفل المياه، في ذاك العالم المجهول، عالم الضياع والهلاك.

حاول أن يتماسك كثيرًا كي لا يفقد اتزانه ويسقط في المياه، ولكن الفاعل ظل يضرب القارب بعنفٍ لينحرف عن مساره أو يُسقط فريسته من البشر، وهو كان متمسكًا بحقه في الحياة بكل ما يملك من طاقة، يود لو امتلك الجرأة فواجه الفاعل وقتله، ولكنها الأمور التي تتوقف عِندها الشجاعة وتظهر فيها ضعف بشريتنا، بعدها أطلت تلك المرأة برأسها من جديد وتحدثت كأنها نواحة في مأتم أبيها قائلة:

○ لا تُغضب النار أبدًا، الطاعة للنار أيها الحقير.

ثم ابتلعتها المياه الثقيلة بعدها، ولم يتمهل هو لثواني وضرب المياه بالمجاديف كي ينتهي من هذا الجحيم سريعًا، وحدث ما كان يريده ووصل إلى نهاية البحيرة، ووجد قواربه التي تشبه القطار ترسو على أرضٍ صلبة، لم ينتظر ليتزن قاربه وقفز منه وهو يتنفس في نهم، كأنه قد نسي التنفس طوال تلك الرحلة بقاربه.

وقتها أدرك أنه قد وصل إلى الجزيرة، وما عليه إلا أن يبحث عن الكهف، الكهف الذي سيأخذه تجاه النار، لينتمي إليها، أو ربما يعرف السر وراء مقتل أمه.

خطا بقدميه أرض الجزيرة التي لم تختلف كثيرًا عن الأرض التي رفض الفرس السير فيها، أرضٍ قاحلة جرداء، صلبة ومتشققة بشقوقٍ كأنها وقد شربت أنهارًا من الدماء، ولازالت تشتاق للمزيد.

سار ناحية الداخل ليرى الكثير من النباتات الغريبة والتي تُشبه البشر في تكوينها، رؤوس ضخمة وسيقانٍ رفيعة وجذور تخرج من بين شقوق الأرض في مشهدٍ رهيب، تأمل السماء من فوقه فرآها سوداء مُغلقة، فلم يجد نجمة واحدة تواسيه أو تطمأنه ولو قليلًا، الصمت أصبح لا يطاق، حتى أن أصوات خطواته لا يسمعها، كأنه فقد حاسة السمع، أو أن الجزيرة كلها ترفض أن يزعجها أحدهم ولو بهمسةٍ واحدة.

وقتها لا يدري لما شعر بالجوع الشديد، فتش عن الزاد فأدرك أنه قد نسيه في القارب، وهو لن يستطيع العودة في هذا المكان الغريب، رُبما، نعم ربما يلتقط ثمرة من على تلك الشجرة الغريبة، اقترب منها في حذرٍ وتوجس، كانت شجرة صغيرة رأسها تشبه الجماجم البشرية، وفروعها كما الشعر الأشعث من حولها، تحمل في

أطرافها ثمارًا سوداء غريبة الشكل، ثمرتها تُشبه القدم الكبيرة ذات الإصبع الواحد.

مد يده في هدوء وأمسك الثمرة و.. وقبل أن يقطفها شعر بفرع الشجرة يقبض على يديه في قسوة، وصرخ، صرخ في رعبٍ وحاول أن يُفلت يديه من الفرع الذي كان مُصرًا على عدم تركه أبدًا، حتى أن الفروع الأخرى راحت تلتف من حوله في خبثٍ كأنها أفعى تقترب من فريستها لقتلها.

وفي محاولة يائسة منه أخرج سيفه وضرب الفرع بكل قوته فحطمه، وقتها سمع أنينًا وصرخةً مكتومةً، كأن الشجرة قد تألمت من الضربة، لم يترك نفسه لأفكاره وابتعد سريعًا بعدما كره الطعام كله.

أكمل المسير وهو يفكر خائفًا، هل هذه الحياة تحمل كل تلك الأهوال في رحِمها؟؟

وهل مَن خَلقنا جاء بنا إلى تلك الحياةِ لنشقى؟؟

ولماذا جاء بنا من الأساس ونحن لا نريد حياة مثل هذه؟؟

وقتها شعر بأنه يريد البكاء، وأن يُزيل تلك الشجاعة الوهمية ويترك نفسه لمشاعره الإنسانية ولو قليلًا، وأدرك أخيرًا قيمة الأم في الحياة، أدرك أنها رغم كونها امرأة ولكنها تُعطي لمن حولها شجاعة وقوة لا حدود لها، حتى في موتها كانت دافعًا ليخوض تلك الأهوال.

ولكنه يريدها، يريد أن يخبرها بما يُعانيه ولو بكلماتٍ معدودة، أن يأخذ منها العِناق الأخير ويعتذر لها عمَّا حدث، فلو عليه لقتل الملك نفسهُ لأجلها، ولحطم الزنزانة ليلتها لتخرج هي من هذا الجحيم.

ثم داعبت بعدها هيلانة تفكيره، تذكر كل الحب الذي يحمله في قلبه لها، رقيقة هي تذكره بنفسه، لا تحب قتل الناس ولا تنتمي للملك بأفكارها، ولكنها لم تبوح بهذا سوى له، ولكن يبدو أن الحياة لا تنحاز للمتشابهين، فإيوان هو من سيظفر بها، وهو من يختلف عنها تمامًا، وكأن الحياة تحب أن تعطي السيئين وتمنع عطائها عن أصحاب القلوب النقية.

كم أنتِ حقيرة أيتها الدنيا، ولو كنت أملك الأمر لحطمتك تحطيمًا وجعلتك عبارة عن قطعة من الخراب، وقتها جلس أرضًا ليفعل مثلما علمته أمه وهو صغيرًا، كانت تقول له، "حينما تثور أفكارك اجلس وفكر ولو قليلًا، دائمًا اعط لنفسك القليل من الوقت للتفكير، ولا تتخذ رد الفِعل لأي أمرٍ قبل التفكير، فالغضب يطمس الفكر المستنير في العقل، والحماسة تجعلك تفكر بطُرقٍ غير منطقية".

حتى في علمها كانت رائعة، كروعة كل النساء الطاهرات على مر العصور، وقتها جلس، وراجع كل ما حدث، مواقفٌ عابرةٌ لم تتسبب له في أي أذى جسدي، إذًا

فهو قادرٌ على المشي وأكثر في تلك الرحلة، أما لو ترك الذكريات تلك تلتهمه فلن تحمله قدماه بعد هذا، وهو يحتاج لكل ذرة قوة بداخله.

حذروه من النار وطلبوا منه الطاعة، لا بأس سيفعل، ولكن حينما يراها، ويواجه لهيبها، وقتها سيعرف أين الصواب من الخطأ، وأدرك أنه يجب أن يواجه مخاوفه، فمن لا يهاب الموت لا يجب أن يهاب أي شيءٍ أبدًا، وهو وضع احتمالية الموت من ضمن احتمالاته.

ونهض من جديد وأكمل المسير، وعلى مرمى بصره كان هناك، الكهف، تلك الفتحة العملاقة المنحوتة في قلب هذا الجبل الصخري، وكأنها فم الجبل العملاق الذي سيلتهمه ما إن يدلف منها، ولكن ليكن ما يكون، سيدخل، نعم سيفعل، وسيواجه بالداخل الهول نفسه لا يهم، "أنا قادم أيها الموت".

قالها في نفسه وانطلق تجاه الجبل وقد اشتعلت عيناه ببعض البريق وتأجج قلبه بشجاعةٍ جاءت مِن العدم.

****

في ذلك المكان المُظلم كانوا يستقرون، يجلسون على هيئة دائرة ويتمتمون ببعض الكلمات الخافتة، كان المشهد مهيبًا بحق، كأنك تراقب صفوة هذا العالم من الرجال، كلهم يرتدون نفس اللباس، ذلك الرداء الرمادي الطويل الذي يغطي جسمهم كله، يتشابهون كثيرًا في ملامحهم بتلك الأعين الزرقاء والشعر الناعم المُنسدل على مؤخرة الرأس من أسفل تلك العمامة التي يلبسونها.

وبعد دقائقٍ نهض أحدهم ورفع يديه إلى السماء وراح يتمتم بصوتٍ أعلى من الآخرين، وبعدها نظر للحضور وقال بصوتٍ رخيم واضحٍ كوضوح الشمس:

⌑ لقد اقتربت الساعة وقد جمعتكم لنجدد العهد سويًا، فمن أراد التراجع فليفعل أو يبقى معنا حتى الموت.

نظروا جميعهم لبعضهم ولم يتفوه أحدِهم ولو بنصف كلمة، راقب صمتهم بأعينه القوية لثواني ثم تابع:

⌑ لقد توازن الكون بوجود الخير والشر على مر الزمان، وقد جئنا لنواجه هذا الشر الذي استوحش على تلك الأرض، وطوال تلك السنواتٍ من الحروب الفردية كنا نخطط لليوم الأكبر وللخطة النارية، الخطة التي ستجعل النار تتفجر وكأنها الجحيم نفسه، وقد جئت مبشرًا أننا قد نجحنا اليوم في إكمال صناعة تلك المادة، وكُلنا على أمل أن يكون النصر حليفًا لنا.

ثم أخرج من جيبه قارورة صغيرة بها مادة تُشبه التراب الفسفوري البرَّاق ورفعها أمام الحضور وقال:

⌑ أحببت أن أريكم مُفجر النيران.

ظهرت الفرحة على ملامحهم جميعًا وهم يرون تلك المادة التي انتظروها لسنواتٍ طوال حتى تنجح خطتهم، ثم بدؤوا يخططون لكيفية السيطرة على الوادي كله، ولكن في تلك الأثناء دلف رجلٌ عليهم وقد ظهر التوتر على ملامحه وهمس في أذن الرجل الآخر قائلًا:

✧ أرجوان في الكهف يا قائدنا.

نظر إليه القائد في توتر كبير وتسائل:

⌑ ومتى دلف إلى الكهف؟!

✧ منذ قليل يا قائدي.

⌑ إذًا فيجب أن تتغير الخطة، فهذا الشاب يجب ألا يسقط في قبضتهم أبدًا، وإلا سينتهي به الحال طعامًا للنار، أي هولٍ قد أسقط نفسه فيه هذا الأحمق.

ثم نظر للجميع في صرامة وقوة وقال:

⌑ سنتحرك الآن ناحية الكهف، وبعد يومين سننفذ خطتنا.

نهضوا جميعًا من مجالسهم وحملوا السيوف وخرجوا من تلك القاعة الصغيرة ليواجهوا الجبل على مرمى بصرهم، ثم نظر القائد ناحية اليسار، حيث تكمن البحيرة، ومن بعدها الكهف، وقتها وضع يديه على فمه وقام بالتصفير بقوة، وفي لحظتها خرجت عليه الكثير من الغزلان الضخمة ذات القرون الطويلة.

امتطى إحداهن وكذلك فعل الجميع هذا، ثم انطلقوا ناحية البحيرة وأعينهم تفيض بالعزيمة والإصرار على إنقاذ هذا الشاب.

أما أمام البحيرة فكان إيوان وسرب الجنود يعبرونها بواسطة القوارب المخفية خلف الأشجار، وفي داخلهم هدف واحد وهو أن يتأكدوا من استسلام أرجوان للنيران، أما إيوان فكان يريد شيئًا آخر، كان يريد التهام قلب أرجوان وتمزيقه شر ممزق، ومن خلفهم كان فرسان المُسالمون ينطلقون.

****

وقف أمام الكهف يلتقط أنفاسه في رهبة، ربما كان قد نزع شعور الخوف من داخله، ولكن التجربة تثير بداخله كل مشاعر الرهبة والإثارة، صعد إلى الجبل حتى وصل بعد دقائقٍ قليلة إلى فتحة الكهف، نظر بداخله فلم يرى سوى الظلام الدامس، وأدرك أنه لو دلف فلن يلمح حتى موضع قدميه، ولكنه تقدم، تقدم ودلف إلى الكهف وقد قرَّر أن يواجه الموت نفسه بابتسامةٍ واسعة.

وبخطواتٍ بطيئة بدأ يسير تجاه الداخل كي لا يصطدم بأي شيء، فأي إصابة لن تكون في صالحه أبدًا، خطوة تلو الخطوة في قلب الظلام حتى كاد أن يتعثر في حجرٍ كان على الأرض.

تمالك نفسه سريعًا وهو متعجبًا من قوة هذا الظلام، وكأن مُصطلح النور لم يُخلق بعد، أو كأنه يسبح في فجوة ظلامية تبتلع أي نور يحاول أن يبدد ظُلمتها، ولكن الأمر لم يستمر لأن الجدران اشتعلت فجأة بالنيران عن يمينه ويساره.

شهق شهقة قوية من شِدة المفاجأة وراح يراقب بأعين مبهورة تلك النيران التي راحت تخرج من الجدران في مشهدٍ عجيب، نيران زرقاء تُسحر الأعين وتذهب بالعقول، نيران جعلت الكهف يُضاء بضوءٍ غريب، وعلى ضوئها رأى تلك الرسومات الغريبة على الجدران، رسومات جعلت كل علامات الذهول تظهر على وجهه، راح يتأملها والنيران تأكل فيها وتخرج منها دون أن تؤثر فيها، كان

يرى نيرانًا لها عينان وتمسك سوطًا من الجحيم، ومن أمامها كانت هناك الكثير من المخلوقات غريبة الشكل، قبيحة وكأنها القُبح نفسه، وكانت النيران في الرسومات تتموج مع النار التي تشتعل على الجدران، تتموج ويتحرك لهيبها في بطءٍ لينزل على أحد تلك الكائنات، وقتها كان الكائن يفتح فمه عن آخره كأنه يصرخ من الهول، ثم نظر إلى رسمةٍ أخرى، فرأى كائنات تشبه النساء في تكوينها، مبتسمات لتظهر أنيابهن الضخمة وتلك الأعين الصفراء الغريبة التي تميزوا بها.

ثم نظر إلى رسمة جديدة فرأى الكثير من الرُعاة، نعم كما وصفهم أهل الوادي حينما يرونهم كل شهر، وكانوا في الرسمة يتحركون وهُم يمسكون الخناجر المُلتهبة، برؤوسهم الأشبه بالثيران، تجاهل تلك الرسومات بقدر استطاعته وأكمل المسير.

وهنا بدأ طريق الكهف يلتوي يمنةً ويُسرة، وهو ظل على حاله يمشي معه في قلب الصخور، ينحني معه يمينًا قليلًا، ثم يسير معه شمالًا، حتى بدأ الكهف يأخذ طريقًا إلى الأسفل، وقتها شعر بالخوف من فكرة ضيق الصخور ولكنه لم يتوقف، وظل يهبط مع الكهف حتى وصل إلى صخرة كبيرة تسد عليه الطريق تمامًا.

حاول أن يدفعها أو يزحزحها من مكانها ولكنها كانت ثقيلة بحق، لا تتحرك أبدًا، حاول من جديد بكل ما يملك من قوة حتى خارت قواه ولم تتحرك بعد، وقتها

أدرك أنه ما من أمل، وأن كل هذا ما كان إلا سرابًا، هو مجرد كهفًا عاديًا، وقد أرسله الملك له لمجرد السخرية، وربما كي يزوج هيلانة لإيوان بدون عِلمه.

كل تلك الهواجس دارت في ذهنه كثيرًا، ولكنه وقتها لا يدري لما تذكر قصة الغلام، تلك القصة التي سمعها في الزنزانة من الرجل العجوز، تذكر كيف كان العابد في كهفٍ مثل هذا وكان يُقبل الأرض ويدعو.

رُبما لو فعل مثل هذا أن تُزاح تلك الصخرة، هكذا ظن، وهكذا قرر أن يفعل، سجدَ على الأرض وراح يتحدث بكلماتٍ غير مُرتبة:

- إن كنت تسمعني فأنا أناديك، أريد أن أجد الحلول، وأن أحتمي بالقوة الأكبر، فإن كنت تسمعني فتلك الصخرة ليست بأقوى منك، وهي تمنعني، فساعدني.

وظل يترقب تحرك الصخرة ولكنها لم تتحرك، وقبل أن يفقد الأمل تمامًا لمح تلك الفتحة الصغيرة بأسفل الصخرة، مد يده من خلالها في حذر فوجد يده تمر من خلالها بسهولة، أمسك حجرًا ضخمًا وبدأ يضرب جوانب تلك الفتحة لعلها تتسع ولو قليلًا، ورغم صعوبة الأمر والشقاء الكبير الذي بذله لأجل هذا ولكنه استطاع بالفعل أن يفعلها، لقد حطم جوانب الفتحة الصغيرة واستطاع عمل فجوة تتسع جسده ليمر من خلالها، وبالكاد استطاع أن يدفع بجسده من خلالها

ويمر، وما إن فعل حتى وجد نفسه على أرضٍ مُشعة بالنور الأحمر الغريب، كأن تُرابها يشع ذلك الضوء.

وكان الطريق يشبه المنحدر من شِدة انحنائه للأسفل، هبط بحِرصٍ شديد حتى وصل إلى نهاية المُنحدر، وما إن فعل حتى توقف قلبه تمامًا عن النبض، وتباطأت أنفاسه لِمَا تحت الصِفر، واتسعت عيناه عن آخرها وتصلب جسده، حتى خُيل لمن حوله أنه عبارة عن منحوت يصف شكل الذهول حينما يغزو أجساد البشر.

وهذا لأن ما حوله كان عجيبًا بحق، كانت هناك أرضٌ واسعةٌ جدًا، تتلون باللون الأحمر الدامي، ومن أمامه كان هناك جدولًا ولكن ليس من الماء، لقد تبدل الماء به بالحمم الملتهبة وهي تنبض فيه كالجحيم، ومن فوق الجدول كان هُناك مَعبرين من الجماجم الملتهبة؛ المَعبر الأول يأخذك ناحية اليمين، وعلى أول المَعبر الصغير والذي يشبه الكوبري الصغير وقفت امرأة غريبة الشكل والمظهر.

كانت بشرتها تميل للحمرة كما كل شيءٍ حولها، ترتدي زيًا يُشبه الرداء الطويل المتطاير بنفس اللون، أما عن ملامحها فقد كانت شيطانة بحق، ينبت قرنان صغيران في مقدمة رأسها، وعيناها كانتا صفراوين كمن رآها في البحيرة من قبل، ووجهها كان شاحبًا كالأموات، كانت مبتسمة لتظهر أنيابها الكبيرة، وكانت تمد أيديها تجاهه كي يتقدم إليها.

أما المَعبر الآخر فكان يقف عليه راعٍ من الرعاة، نعم بنفس الوصف، جسده مغطى بجلد الأغنام، ورأسه شبيهة برأس الثور، وعيناه كما قطعة الثلج، وكان الآخر يمد يديه تجاهه كي يتقدم إليه، وقتها أدرك أنه قد وصل أخيرًا، وأنه لا مناص من التراجع أبدًا.

تطلع إليهما كثيرًا، لا يدري لأيهما يذهب، فكلاهما قد جاء من قلب الجحيم، وكلاهما لا يُبشر بالخير أبدًا، تقدم في حذر تجاه تلك الشيطانة التي اتسعت ابتسامتها، ووصلت إلى أنفه وقتها رائحتها، والتي كانت مزيجًا من رائحة احتراق الأشياء في النار والدخان الخانق، ولفحت حرارتها وجهه، وما إن خطى بقدميه ذاك المَعبر المُخيف حتى اختفي الراعي تمامًا، ووجد نفسه مع تلك الشيطانة تقوده إلى ما بعد المعبر، حيث أرض الجحيم نفسه.

وبدأت تتحدث ما إن وقف بجوارها:

✪ مرحبًا بك في أرض الحياة والنجاة أيها البشري.

كان لازال وقتها لا يقدر على التفوه ولو بنصف كلمة، عبرا المَعبر معًا ليدلفوا إلى متاهة ضخمة من الحجر الأحمر الدامي، متاهة هائلة وكأن الجبال قد نُحتت لتُصنع منها، سار معها بين الوديان الحجرية، يمينًا ثم يسارًا ثم يسارًا حتى وصلا إلى

ساحة هائلة على تلك الأرض، تحدها الصخور من كل جانب، وهما قد خرجا من أحد شقوق تلك الصخور.

وفيها اجتمعت الكثير من شبيهات تلك المرأة بنفس الرداء الأحمر والملامح المخيفة، تساءل في رهبة وقال:

▪ أين نحنُ؟!

✪ أنت في أرض حوريات جهنم يا صغير، أنت في جنة الإله.

تساءل في ذهول وقال:

▪ أي إلهٍ هذا؟!

أشارت بإصبعها إلى نهاية الساحة، وهناك كانت نارٌ مُشتعلة، تُشبه في تكوينها البشر، لها رأسٌ وقدمٌ وساقٌ، تنظر إلى الحوريات ف ثباتٍ رهيب، ثم راح يتقدم في تلك الأرض أكثر، وقتها رأى الكثير من البشر في تلك الأرض، يسكرون ويزنون بتلك الحوريات في مشهدٍ رهيب، كانوا سُكارى، يصرخون من المتعة والانتشاء، وكأنهم قد ملكوا الكون بأكمله.

والأشد بشاعة هو رؤية تلك الأطفال بشعة الخِلقة والتي كانت تركض في قلب هذا الجحيم، يلعبون ويضحكون بخلقتهم تلك، رؤوسهم ضخمة وأعينهم

صفراء جاحظة، الأجساد هزيلة كأنهم عبارة عن القليل من العظام المكسوة بالجلد.

وقتها أمسكت تلك الشيطانة كفه وقالت:

✪ ألا تريد أن يكون لنا طِفلًا مثل هؤلاء؟

انتفض جسده لحديثها وقال:

▪ ولِمَ قد أريد هذا؟

✪ حتى يرضى عنك الإله "النار".

ابتلع ريقه بصعوبةٍ بالغة وقال:

▪ حدثيني عن هذا الإله إذًا.

اتسعت عيناها بطريقة رهيبة وقالت:

✪ إنه الأقوى على مر العصور، القادر على تدمير وإحراق كل شيءٍ، مَن كان من حاشيته ينجو من كل شيءٍ، ويحيى في النعيم دائمًا، مَن رضي عنه يجعله ملكًا على الأرض مُنعمًا، كما حدث مع أبيك سديم.

تفاجأ من كلماتها ولكنه تخطاها وقال:

▪ وكيف ترضى عني النار؟!

وضعت كفها على خده ونظرت في عينيه بدلالٍ وقالت:

يذهب هناك يسجد لها ويجدد العهد معها، ثم يتزوج من إحدانا، فتقرر النار بقدر طاعته أي مكانة قد تضعه فيها، ويأتي إلى هنا كل مائة يومٍ كي يحضر ليلة تأجج النيران، ليسجد لها، ويجدد العهد معها، فهي الأقوى في هذا الكون، لا يقدِر عليها شيئًا، ولا يعصيها إلا الخاسرون..

تأمل ما حوله من جديد والرهبة لازالت تلبس جسده وكيانه وروحه، في تلك اللحظة شعر بيدٍ تجذبه في إصرار، نظر خائفًا فرأى طِفلًا من تلك الأطفال البشعة يجذبه في إصرار، ابتسمت تلك المرأة الشيطانة وقالت:

✪ اذهب معه كي ترى.

وبالفعل تقدم مع الطفل كي يرى الهول كله، كان كلما اقترب من النار اكتشف أنها تُشبه البناء المقسم للكثير من الغُرف، وفي كل غُرفة كان هُناك من يفعل شيئًا، هناك من يُمارس الفاحشة في مشهدٍ بشع، وهُناك من يشرب مشروبًا ناريًا غريبًا، وفي غرفة مِن الغُرف كان هناك من يذبحُ طفلًا، وفي أخرى كان هُناك من يَستحم في سائلًا أحمر اللون، كما كل شيءٍ هنا بنفس اللون.

وقتها انتفض جسده حينما تحدث ذلك الطفل البشع وقال:

⊙ هنا النعيم الأكبر في تلك الحياة، تفعل ما تشاء، وتملك ما تشاء، وحتى حينما تخرج لا تكون بشريًا عاديًا، فإما تُصبح راعيًا قويًا، أو حارسًا للنار وتبقا هنا، أو يكون لك فضلٌ أكبر كسديم وتكون خادمًا للنار على الأرض نفسها، ملكًا على العبيد تتأكد من عبادتهم للنار، وتفعل بهم الأفاعيل بمباركةِ النار نفسها.

ولكنه وبداخله لم يكن مطمئنًا لكل هذا، لا يجب أن تكون الحياة بمثل تلك القسوة، لا يجب أن نحصر النعيم والمتعة في الاختلاء بالشيطانات والسُكر والقتل، هناك أمورًا يشعر أنها أشد مُتعة ولكن لا يعرف كيف، هنا تحدث معه الطفل وقال بأعين تتأجج باللهب:

⊙ والآن اذهب إلى النار كي تتم مباركتك، وإياك أن تعصيها مهما حدث.

كلمات الطفل أثارت بداخله مخاوف أكثر، ولكنه لم يعترض، نظر خلفه فرأى الشيطانة تشجعه على التقدم أكثر، تقدم في ضعفٍ وتوتر ناحية ذاك المبنى الغريب، كان وكأنه بشريًا مُشتعلًا وفي بطنه تتراص الغُرف، وكانت الحِكمة واضحة، يرضى عنك هذا الكيان وتدخل إلى بطنه وتنال النعيم.

تقدم حتى توقف أمام هذا الكائن الضخم وهو منحني الرأس قلبه يكاد يتوقف من هذا الهول، وقتها سمع صوتًا ملتهبًا يخرج وكأنه الفحيح يقول:

*لماذا جئت أيها البشري؟!

وقبل أن يتفوه بكلمة سمع صوتًا آخر يُجيب، كانت تلك الشيطانة تقف بجواره، تحدثت بالنيابة عنه وقالت:

✪ جاء لينال رضاك ويعلن الطاعة لك أيها الإله.

رد هذا الصوت من جديد وقال:

✷ وما الذي سيقدمه لينال رضاي؟!

ابتسمت الشيطانة وقالت:

✪ سيُنجب مني طفلًا بمباركتك.

وقتها نظر إليها في رعبٍ، كان من داخله يعرف جيدًا أنه لن يقدر على فعلها أبدًا، لا يمكن أن يعاشر فتاة من الجحيم، مُلتهبة الجسد كجمرات النار ستحرقه، ورائحتها ستلازمه طوال حياته فتجعلها جحيمًا، وقتها لمح أظافرها الضخمة الخضراء، وتأمل ملامحها أكثر، كانت بشعة بالفعل، لا يمكن للنفس أن تقترب منها ولو لحظة واحدة.

وقتها صاح بحِدة وقال:

■ لا.

نظرت إليه في ذهولٍ وغضبٍ ولم تتفوه، أما هو فلم يكن يدري كيف تأتيه الجرأة ويرفض بتلك البساطة، ولكن كان هناك حاجزًا يمنعه من الاقتراب من هذا مهما

حدث، حتى لو كان الجحيم هو الجزاء، وقتها تحدث الفحيح من جديد وقد اشتعل الصوت بنبرة الغضب وقال:

✷ وماذا سيقدم بديلًا لهذا؟؟

وقتها صرخت الشيطانة ثائرة، غاضبة وقالت:

✪ سيسجد لك يا إلهنا ويعتذر، هيا افعلها أيها القذر.

تعجب من تحول مشاعره في تلك اللحظة، وكأنه يتأرجح بين الشجاعة والرعب، ابتسم لها وقال:

▪ وهذا أيضًا لن أفعله.

وسمع صيحة غاضبة من الكيان نفسه، وقتها صرخت المرأة وقبضت على يديه وهي تصيح صارخة بعد أن اشتعل وجهها وزادت رائحتها الغريبة قوة وقالت:

✪ إذًا لا مكان لك هنا في النعيم، ستذهب إلى الجحيم أيها القذر كي تتعلم الطاعة

كانت قوية، تقبض على يديه بقبضة من الفولاذ، وأخذت تجره وهو ينازع كي يهرب من قبضتها، ولكنها كانت ثائرة، تصرخ كالأطفال، وكانت صرخاتها تتردد في الأرض كلها، ومن خلفهم كانت صيحات تلك النار الغاضبة تنوح في الأفق، ثم جاءه الصوت من جديد يقول:

✷ ليذهب إلى الجحيم، ليتعلم كيف يعصيني، ويحترق هناك مع المُعذبين.

وقتها عاد الخوف يغمر قلبه بعد تلك الشجاعة المؤقتة، وأدرك أنه ذاهبٌ إلى الهلاك لا محالة، أما هي فكانت ولازالت تجره جرًا، وصلوا إلى المتاهة وعبروها سريعًا حتى عادوا إلى المَعبرين من جديد.

دفعته بقوة تجاه المَعبر الآخر ليرى نفس الراعي يقف هناك من جديد، صرخت فيه قائلة:

✪ اذهب به إلى الجحيم، لقد عصى إله النار، وحُكم عليه بالهلاك حتى يتعلم الطاعة.

وقبل أن يتفوه بنصف كلمة، أو يعترض، أو حتى يحاول الهرب، كانت هناك قبضة أشد قوة تمسك بيديه لتجره إلى الجهة الأخرى، تجاه الجحيم، وقتها زاد الرُعب في قلبه، وانتفض جسده مرات ومرات، يتخيل هذا العذاب الذي سيذهب إليه وكيف سيتحمله من الأساس.

في هذا الوقت كان الراعي يجره جرًا بقوةٍ هائلة ناحية هذا الجدار الضخم المنحوت فيه تلك الأبواب الملتهبة، نظر الراعي إلى الباب الأول وقال:

❍ سأجعلك تذوق كل أصناف العذاب كي ترجع إلى رُشدك أيها اللعين.

ثم فتح الباب الأول ودفعه بكل قسوةٍ فيه ثم أغلقه خلفه، وفي لحظةٍ وجد نفسه في مكان مُغلق يشبه الكهف الحجري، ولكنه لم يكن وحيدًا، لقد كانت هناك في الزاوية تجلس في وضعٍ جنيني وتحتضن ركبتيها وترتجف، نظر إلى تلك المرأة في خوفٍ وقلق، ولكنها سرعان ما رفعت رأسها ليراها، لقد كانت آخر امرأة يتوقع قدومها إلى هنا، لقد كانت أمه.

هتف بكلمة أمي، بنفسٍ مبهورٍ وقلبٍ ثائرٍ، ركض تجاهها وقد تناسى كل شيٍ، ولكنه وقبل الوصول إليها ارتطم في حاجزٍ غير مرئي وسقط أرضًا متألمًا، نهض سريعًا وحاول من جديد، ولكنه لم يستطع أن يقترب منها، وكأن بينه وبينها حائط من الفولاذ الشفاف لا يمكن عبوره أبدًا.

في تلك اللحظة تغير شكل المكان من أمامه، ورأى أمه تجلس في منزلها بنفس الهيئة التي كان عليها قبل أن يحترق، كان يراها من خلال الحاجز تذهب وتجيء وقد ظهر عليها القلق والتوتر الشديد، حاول أن يناديها ولكنها لم تسمع مُطلقًا، ثم فجأة رأى الباب يتحطم بصوتٍ قوي، ثم ظهر الرعاة، ورأى أمه تنتفض من الرعب وتحاول الهرب منهم دون جدوى، ورأى الخنجر الملتهب في يد الراعي وهو يمسكه بقوة ثم يقترب من أمه.

وقتها ثار، ثار في جنونٍ تام وحاول أن يحطم ذاك الحاجز الذي يمنعه من إنقاذ أمه، ضربه بكل قوته كي يحطمه ولكن الألم كان يثور في قبضة يده هو، ثم اتسعت عيناه في فزع حينما رأى الخنجر يخترق جسد أمه، ثم سمع شهقتها ورأى انتفاضة جسدها ورعشة عينيها، وصرخ، صرخ بكل ما يملك من ألم وقهر وحزن، ناداها بأعلى صوته كي تنظر حتَّى إليه ولكنها لم تفعل، أما هو فكان يسمع حشرجة صوتها، أنفاسها التي راحت تقل تدريجيًا، ومن أمامها وقف الراعي مبتسمًا، ثم حمل جسدها الذي تسيل منه الدماء وخرج من المكان.

مرت دقائق قليلة وهو يئن من القهر والألم من رؤية هذا المشهد حتى اشتعل البيت كله بمن فيه، وسقط هو أرضًا باكيًا، يشعر بألمٍ قاتل في قلبه، وكأنه العذاب الأكبر، ظل على الأرض ينتحب طويلًا، ولكن سرعان ما سمع حركة من أمامه، نظر من جديد فرأى أمه تجلس في نفس الوضع الجنيني، ثم تنهض من مكانها وتروح وتجيء في توتر وعصبية شديدة، انقبض قلبه لأنه فهِم أنه سيرى المشهد ثانيةً، وبالفعل هذا ما حدث، حطم الرعاة الباب، ثم تقدم أحدهم من أمه الخائفة، أخرج خنجره الملتهب وغرزه في قلبها بكل عنف، شهقات، انتفاضة الجسد، ثم السقوط أرضًا ليحملها الراعي ويخرج ثم يشتعل المنزل.

وسقط أرضًا من جديد ليحدث نفس ما حدث منذ قليل، لقد تكرر الأمر والمشهد للمرة الثالثة، وأدرك أنه سيتعذب بهذا المشهد حتى يفقد عقله كله، حتى يصاب

بالجنون ويموت كمدًا وحزنًا على أمه القتيلة، ولكنه كان واهمًا، كان يظن أن هذا فقط ما في جعبة هذا المكان الملعون.

لأن المشهد بدأ يتغير قليلًا، لقد رأى نفسه في الوادي يُحرق جثمان أمه، إنه مشهد جديد، يتذكره جيدًا، حينما ذهب بالجثمان ليكرمه بالحرق كما العادة عِندهم، ولكن الكارثة أن الجثمان راحت تصدر منه صرخاتٍ هائلةٍ، كأنه يحرق أمه وهي على قيد الحياة، في المشهد كان يقف حزينًا وكأنه لا يسمع شيئًا، أما الآن فهو يرى ويسمع، لقد أحرق أمه وهي لازالت حية، وها هي تصرخ بصرخاتٍ مروعةٍ، مخيفةٍ، وكأنها تحترق في الجحيم نفسه.

وقتها زاد الألم أضعافًا، وانفطر قلبه وتمزق أكثر، وتخدر جسده كله من شِدة الهول الذي يراه، مَن هذا الذي يحتمل رؤية أمه تُقتل أمام عينيه ولا يمكنه أن يحرك ساكنًا، ومن ذاك الذي يعرف أنه أحرقها حية بعد ذلك ولا يموت كمدًا، وزاد العذاب حينما تكرر هذا المشهد من جديد، يرى نفسه يحرق أمه أسفل الجبل بواسطة الحمم، ويسمع صرخاتها الآن بأعلى صوتها، ولكن العذاب راح يتصاعد في نفسه وكأنه لا نهاية له حينما راحت تلومه من وسط صرخاتها بقولها

"لقد أحرقت أمك أيها التعس"

"أنا أحترق أنقذني أيها الحقير"

"أنا أتألم فساعدني رجاءً"

"أبعد كل ما فعلته معك يكون هذا جزائي"

هكذا كان العذاب الذي راح ينهش فيه نهشًا، ثم بدأ مشهدًا جديدًا أشد قسوة، لقد رأى أمه تقف أمام مبنى النار تُحاسب على أفعالها، وكان الصوت يتحدث معها بغضبٍ شديد:

* لماذا لم تستجيبي للنار.

ولكنها لم تكن تُجيب، كانت تنتفض فقط، ترتعد كمن وضعوه في الثلج عاريًا، ثم تحدث الصوت من جديد بغضبٍ أكبر وقال:

* ولماذا لا يستجيب ابنك لنا ولا يطيع خادمنا سديم.

بكت أكثر وقتها لينهي الصوت حديثه قائلًا:

* سنعذبك لأن ابنك لم يكن طائعًا لنا.

ولحظتها خرجت أطياف كثيرة ملتهبة وهجمت على جسدها لتصرخ المرأة من الهول والألم والرعب، ويصرخ هو لما يرى ويحاول من جديد أن يتخطى هذا الحاجز دون جدوى، وقتها فقط نظرت أمه تجاهه، نعم نظرت وكأنها تراه، وبكل غضب صبت عليه اللعنات قائلة:

• كل هذا يحدث لي بسببك أيها اللعين، لو كنت أطعت الخادم والإله ما كنت لأتعذب بسببك الآن، عليك لعنات الإله كلها".

وقتها فقط أدرك أنه لن يحتمل، لن يحتمل أبدًا، خاصة أن المشهد راح يتكرر كثيرًا، وهو ظل يصرخ، ويستغيث، حتى ظل يردد:

▪ سأستجيب، سأستجيب يا إله النار، سأكون طائعًا لك ولخادمك أبدًا ولكن أخرجني من هذا العذاب رجاءً.

ظل يرددها كثيرًا، ويبكي أكثر، حتى سقط أرضًا من الضعف والحَزن، راح يزحف على الأرض حتى انزوى على نفسه في الركن وراح يرتجف في صمتٍ تام، لقد خارت قواه، واستُهلكت كل مشاعره الآدمية، ورأى الهول الذي يدمر النفس تدميرًا، وقتها سمع أصواتًا من جديد، ولكنه لم يكن ليستطيع أن ينظر ثانيةً، يتمنى الموت على أن يرى أمه تتعذب هكذا، أو يرجو أن يعذبوه هو ويحدث فيه ما حدث لها وتنجو هي، ولكن هذا الخيار لم يكن متاحًا أبدًا، هي ستتعذب بدنيًا وهو سينهار نفسيًا، ثم وفجأةً فُتح الباب، واقترب منه أحدهم، ثم راح يهُزه هزًا، نظر بضعفٍ ووهن تجاهه فرأى الراعي يقف عِند رأسه، ثم جذبه بقوةٍ إلى خارج الباب، تنفس الصعداء لخروجه من هذا الهول، تحدث بوهنٍ وقال:

▪ هل انتهى العذاب؟

أجابه الحارس في قسوة وقال:

○ لا أيها التعس لازالت هناك صنوفٌ وألوانٌ من العذاب لم ترها بعد.

وجذبه ناحية الباب الثاني ثم قال:

○ الآن لترى الجنود الصغار الذي يغارون على الإله من العصاة والمُذنبين.

ثم دفعه بكل قوته ناحية الباب الثاني وأغلق عليه الباب، ووقف أرجوان ينتظر العذاب بقلبٍ مفطور وجسدٍ مُنهك، ظل على حاله في تلك الغرفة والتي كانت تُشبه سابقتها يترقب حضور العذاب، ولم ينتظر كثيرًا لأنه سرعان ما سمع أصواتًا كثيرة قادمة من قلب الجدران، لحظات فقط وظهرت الكثير من العقارب، ربما الملايين منها، تقف في شموخٍ وترفع مخالبها في تحفزٍ كبير، وتنظر إليه بأعين نارية ملتهبة، و...

ولم ينتظروا لحظةً ليخاف منهم، بل انطلقوا ناحيته كالجيوش الجرارة التي تُهاجم مدينة استصعبت عليهم، انطلق كالمجنون في تلك الغرفة حتى رأى ممرًا صغيرًا يخترق الجدار، لم يتأنى لحظةٍ واحدة ودلف منه وراح يركض كالمجنون في الممر، ولكن الفاجعة جاءته على هيئة ذاك الحائط الذي كان يُغلق الممر، ومن بعيد رأى العقارب تقترب منه في سرعةٍ رهيبةٍ، كأنهم سيلتهمونه التهامًا، و...

وصرخ بكل ما يملك في نفسه من الرعب حينما اجتاحته جيوش العقارب الجرارة وراحت تزحف على جسده حتى غطته تمامًا، كانت أرجلها تنغرز في جسده فتصيبه بالألم والفزع معًا، وكانت أصواتها تُشبه نحيب ألف ألف امرأة فوق أذنيه، ركض وسط هذا الكم منهم، توقف عن الصراخ حتى لا يدخلون إلى فمه وظل يزوم كمن قُيد فكه بالحديد، ظل يركض هنا وهناك مرات ومرات ولكنهم كانوا يتعلقون به في إصرار.

ومع الرعب والخوف والثِقل الغريب لتلك الأجساد الصغيرة سقط أرضًا، وما إن سقط حتى وجد نفسه في مكانٍ مُظلم ومن أمامه يقف عقربٌ ضخمٌ كأنه وحشٌ أسطوريٌ، أما هو فكان وكأنه قد أصابه مسٌ من الجن، فراح يتحرك جسده بدون إرادة منه، تتشنج أطرافه ثم تعود كما كانت، وتتشنج من جديد ثم تعود...

اقترب منه العقرب الذي كان يفوقه حجمًا ووضع مخلبيه على كتفيه وسلط نظراته على عينيه وراح يتطلع فيهما بشراسة، ثم تحدث، نعم تحدث وقال:

* أنتَ من عصيت إله النار أليس كذلك؟!

حاول أرجوان أن يجيبه ولكنه كان فاقدًا لكل شيء، يصيبه الشلل والرعب والفزع والتشنج، كان لا يعرف حقًا بعد كل ما حدث كيف يسيطر على نفسه ولا على

جسده، حاول أن يتفوه بأي كلمة أمام هذا الكيان المُخيف ولكن الكلمات خانته، وقتها تحدث العقرب من جديد وقال:

* أتعرف أنكَ تستحق العذاب يا هذا، فالأحمق فقط هو من يعصي النار.

وقتها استطاع أن يرد ولا يعرف كيف فقال:

▪ لن أعصي النار ثانيةً ولا خادمها، فقط أطلب الرحمة، أطلب تجديد العهد مع النيران لأكون لها طائعًا، ولأهل الوادي مُعذبًا، قاتلًا، ولعبادة النار داعيًا، واعظًا.

ابتسم العقرب ابتسامة شرسة وقال:

* تروقني كلماتك أيها البشري، ستخرج من هنا إلى الباب الجديد حتى ترضى عنك النار وتخرج لتجدد عهدك بها، ثم تعود إلى نعيمها، تُضاجع الجهنميات وتُنجب الأطفال وربما تلتحق بالحراس أو الرعاة.

▪ نعم، نعم، سأفعل.

وما إن قالها حتى وجد نفسه في الممر يتخبط وعلى جسده تلك الأعداد الهائلة من العقارب، وما إن نهض مصروعًا حتى انسحبت عن جسده وعادت إلى مكانها من جديد، ووقف هو في الممر يتنفس الصعداء، يحاول أن يتمالك جسده، خرج من

الممر الصغير ليرى ثُعبانًا ضخمًا يسد عليه الطريق، نظر إليه فزعًا ليتحرك الثعبان ويفتح له مجالًا للخروج.

تقدم سريعًا ليبتعد عنه وما إن أصبح بجوار الثعبان حتى تحرك الجزء العلوي للثعبان تجاهه سريعًا والتف عليه حتى كاد أن يحطم عظامه، اقترب الثعبان من وجهه وهو يخرج لسانه في شراسة وينظر إليه، ثم همس في أذنيه قائلًا:

ـ لا تجعل إله النار يغضب عليك، لأنك ستسقط في هذا الجحيم حينما تموت.

أومأ برأسه مرتعبًا ليبتسم الثعبان ثم يرخي جسده ويبتعد عنه، وقتها فقط فُتح الباب ودلف الراعي منه، نظر إليه أرجوان في رجاء كي ينجده مما هو فيه، أخذه الراعي من هذا المكان وخرج به من الباب، وأدرك أرجوان أن الأمر لم ينتهي، لم ينتهي أبدًا.

كان يعي أن الفتى في كربٍ شديد، ومن واجبه أن يُساعده بشتى الطُرق المتاحة، فهذا ما جاء لأجله، ولهذا يرتحل من مكانٍ إلى مكان، يحاول أن يهدم الباطل ويُحيي الحقَّ في القلوب، يحطم أصنام عبودية الفِكر وإضاءة العقول بالأمور الصحيحة والفِكر المنطقي، لهذا تقدم وتخطى، مر من البحيرة كمرور الشُهب، لم يوقفه شيء، ولم تراه شياطين الجحيم نفسها.

ووقف أمام الكهف يتمتم بكلماتٍ خافتة، كلماتٍ قد تُنجي الفتى مما هو فيه وتزيد من شجاعته ثم تقلب كل الأمور رأسًا على عقب، لقد فعلها مُسبقًا، ويمكنه أن يفعلها من جديد، هكذا قالها في نفسه، ولهذا قد جاء، فالأمور تسير ناحية الطريق الصحيح.

المادة في القارورة ستُغير كل شيء، والفتى يجب أن يتحرر من كل هذا، ولكن الأهم أن يفيق سريعًا مما يحدث له بداخل الكهف، فهو لن يقدر أن يتقدم أكثر من هذا وإلا شعروا بوجوده، وهو لا يريد هذا أبدًا، هو فقط يريد الفتى، ويريد أن تنتهي مهمته هنا عاجلًا غير آجلٍ، فكما فعلها من قبل يمكنه فعلها هنا، ويمكنه أن يتتبع هذا السِحر الجهنمي حتى النهاية مهما كان الثمن، هكذا كان العهد الذي قطعه على نفسه.

ولكن فجأةً شعر بأن هناك دخلاءَ في المكان، وأدرك أن الأمور ستزداد صعوبة، خاصة حينما لمح المسالمون يقتربون من الكهف كالعادة دونما الخوف من كل تلك الشرور التي تُحيط بالمكان، ولكن الفاجعة كانت هناك، حينما لمح إيوان يقترب من الجانب الآخر ببعض الجنود، وأدرك أن الأمر سيسير بغير المُخطط له، ولكن لتكن المشيئة، وليكن القدر.

****

وزُج به إلى الباب الثالث، وكأن العذاب هُنا لا ينتهي أبدًا، ولكن الأمر كان أغرب من الخيال هذه المرة، لقد وجد نفسه في ساحة عظيمة بها المئات من البشر العراة المُصفَّدين بالسلاسل الحديدية الضخمة، ومن أمامهم كانت هناك العشرات من الكائنات البشعة التي تُشبه الزواحف بأعينها الجاحظة وأجسامها المتحجرة، كان الإرهاق والتعب والألم يظهر في عيون هؤلاء الناس وهم يُساقون كالغنم على هيئة صفوف ناحية تلك الصُلبان الخشبية المُخيفة، كان الشخص منهم يُصلب في تلك الصلبان وتقوم تلك الكائنات بجلده بأسواط من الجحيم، مُلتهبة بالنيران.

ربطوا أكثر من عشرين شخصًا منهم ووقفوا من خلفهم حاملين تلك الأسواط،

وبدأت الصرخات حينما مزقت الأسواط الجلود واللحوم، كانت الأسواط تُصدر أصواتًا رهيبة، تتزامن مع أصوات صرخات هؤلاء المساكين، ومن خلفهم وقف الباقون عرايا ينتفضون كالطفل الذي ينتظر العقاب، نظر إليهم في وهنٍ ورعبٍ فرأى أن السلاسل غير محكمة إطلاقًا عليهم، ومع ذلك فقد استسلموا تمامًا لمصيرهم التام، فكر أن يحذرهم بأن يُخبرهم بأنهم يمكنهم الهرب، ولكن خشي أن تراه تلك الشياطين فتفعل به مثل هذا.

وفجأة شعر بقبضة عنيفة تقبض عليه من الخلف، نظر فزعًا فرأى أحد تلك الكائنات الشيطانية يقبض عليه في قوة ويقوده تجاه جموع البشر العارية، المُعذبة،

وأدرك أن جسده سيتمزق لا محالة تحت تلك الأسواط الجهنمية، وقف وسط الأجساد العارية ينتفض بدنه، وينبض قلبه، وتتسارع أنفاسه، وكلما سمع أصوات المُعذبين ازدادت نبضات قلبه.

إنه حتمًا في أسوأ مكان في هذا العالم، في تلك اللحظة انتهى تعذيب المجموعة الأولى، قاموا بحل وثاقهم ثم قيدوا مجموعة جديدة في تلك الصلبان، وارتفعت الأسواط من جديد تضرب الأجساد بكل عنفٍ وقسوة، تراجع في هدوء من وسط الناس حتى لا يكون ممن عليهم الدور في العذاب، وارتفعت الصيحات المعذبة، ثم حلوا وثاقهم وقيدوا مجموعة جديدة.

كان يُعاني جراء تلك الأصوات الرهيبة، خاصة أصوات الشياطين التي كانت تُشبه أصوات الكلاب الغاضبة، وظل على هذا الحال كثيرًا، يتراجع كلما اقترب منه الدور إلى الخلف، الغريب أنه هو فقط مَن كان يفعل مِثل هذا، ولكنه لم يكن ليُسلم نفسه بسهولة.

وبدأت الأعداد تتناقص وتتناقص حتى تبقى هو وعشرون آخرين، هجمت الشياطين عليهم و.....، وكان محظوظًا حينما أخذوا العشرين وتركوه، قيدوهم وفعلوا بهم كما فعلوا مع الآخرين حتى انتهوا منهم، في تلك اللحظات نظروا جميعهم إليه، هو الوحيد الذي لم يأخذ قِسطًا من هذا العذاب الأليم.

في تلك اللحظة هجموا عليه جميعًا، وقرر أن يهرب أو حتى أن يحاول، وانطلق راكضًا مبتعدًا عنهم، في تلك اللحظة رأى من أمامه ثلاثة أبواب، فتح أولها سريعًا وشهق شهقة ذهول؛ لقد كانت هيلانة بالداخل وهي تعانق إيوان، وقف يتأملها في قهرٍ وهي بزي الزفاف وإيوان من أمامها يتبسَّمُ، إذًا فقد تزوجت هيلانة من إيوان، تراجع سريعًا ليُغلق الباب فرأى كائنًا منهم يخرج من الباب ويهجم عليه، لم يتوانى وفتح الباب الثاني، وكانت في انتظاره مفاجأة جديدة، لقد رأى نفسه ينحر فتاةً والملك سديم يقف من خلفه مبتسمًا، اللعنة، هل سيقتل ليرضى عنه الملك.

أغلق الباب سريعًا ليفاجئ بكائنٍ جديد يخرج من الباب، ثم فتح الثالث ليرى نفسه وقد سقط بين أيدي الرعاة وراحوا يطعنونه بخناجرهم في شراسة وصيحاتهم تصدح في الآفاق، شهق من جديد وعاد راكضًا ومن حوله راحت الشياطين تمد أيديها ناحيته كي تتخطفه كما يُتخطف الطير، وقتها لم يجد سوى تلك الكلمات ليصرخ بها

▪ سوف أعاهد إله النار على الطاعة فلا ضرر ولا ضرار.

ظل يرددها وهو يلهث فزعًا، وقتها فقط اصطدم بقوةٍ في أحدهم، لقد كان الراعي، أمسك في جسده بقوة متوسلًا له كي يأخذه من هذا المكان الملعون،

وبالفعل أخذه الحارس مُبتعدًا عن تلك الساحة وخرجوا من الباب الذي أدخله منه، تنفس الصعداء ليجد نفسه في مواجهة الباب الرابع، ردد في ثورةٍ باكيًا:

▪ ألن ينتهي هذا العذاب؟!

أجابه وقتها الراعي بصوته المُخيف قائلًا:

○ لقد اقتربت من النهاية وبعدها إما أن تقبلك النار أو تبقى هُنا للأبد.

وقبل أن يتفوه بكلمةٍ واحدةٍ دفعه الراعي بكل قوته ناحية الباب الرابع، وفي لحظة واحدة وجد نفسه في قلب دوامة من الظلام الحالك، بل كان يشعر بالظلام يدور من حوله وكأنه ثعبانًا يحاول اصطياد فريسته.

في تلك اللحظة سمع من قلب الظلام تلك الهمسات الغريبة، اقشعر بدنه وترقب ظهور العذاب الجديد، ولكنه لم يرى أحدًا، فقط كانت الهمسات تقترب منه لتتضح كلماتها الغريبة.

"اقتل نفسك يا فتى"

ترددت الجملة في عقله فجعلت بدنه ينتفض مرات، ثم عادت تتكرر من جديد وسط مُحيط الظُلمات هذا، والعجيب أن هُناك قوة عجيبة من داخله كانت تدفعه ليفعلها، وكأن هناك لذة ستجتاحه حينما يقتل نفسه.

"اقتل نفسك يا فتى"

عادت الجملة تتكرر وتزيد في نفسه تلك الرغبة في قتل نفسه، والأعجب أنه وبدون مقدمات وجد من يضع في يده سكينًا حادًا من قلب الظلام.

"اقتل نفسك يا فتى"

انتفض من جديد بعدما تملكت مِنه الفكرة أكثر وأكثر، حاول أن يقاومها بكل قوته، حتى أنه صرخ في قلب الظلام كي يهزم تلك الفكرة، ولكنه لم يستطع أن يدحرها، وبكل ما بداخله من شهوة لفِعل هذا قام بجرح زراعه بالخنجر، وقتها شعر بالألم الشديد، ولكنه ضحك، ضحك لأن هناك لذةً غريبة اجتاحت جسده، كان يعي أنه يضر بنفسه ضررًا شديدًا، ولكن اللذة أنسته كل شيء وراح يخدش نفسه بكل ثورة وحماسة وكأنه يقتص مِن قاتله، وسال الدم منه كثيرًا، غزيرًا، ولكنه لم يتوقف ولو لحظةً واحدةً.

ثم وبكل ما يملك من قوةٍ قبض على الخنجر وغرزة بكل قوته في فخذه، وقتها فقط صرخ من الألم الشديد، وقتها رحلت عنه اللذة للأبد، ولم يشعر سوى بالألم الشديد، وقتها أدرك أنه كان يجب أن يقاوم تلك الوساوس، وقتها علِم أنه كان يجب أن يستمع لعقله ويحارب تلك اللذة اللحظية لكي لا يتألم وينال العِقاب في النهاية.

والعقاب هنا كان شديدًا، لقد كان الألم لا يحتمل، زحف سريعًا ليخرج من المكان ولكنه سمع من جديد.

"حسنًا لا تقتل نفسك، ولكن اجرح نفسك فقط"

حاول أن يقاوم الهواجس ولكنها عادت تهاجمه في ضراوة شديدة، وأدرك أن اللذة ستعود إليه من جديد، وها هو قد تناسى الألم وراح يجرح نفسه من جديد، في ذراعه، وقدمه، وبطنه، وساقه....

وارتفعت اللذة من جديد، بل وزادت شهوته لجرح نفسه وكأنه يضاجع الدنيا بمن فيها، وظل يفعلها حتى رفع السكين وغرزه بعنفٍ من جديد في فخذه الآخر، وصاح بأعلى صوته متألمًا، وقتها غادرته اللذة وتبقى الألم، الألم الذي كان ينهشه نهشًا، يأكل في جسده وروحه من الداخل، يُعذبه عذابًا أليمًا لا يتحمله، فأطاح بالسكينة من يده ولكن اللذة عادت له من جديد مع سماع نفس الجملة.

"اقتل نفسك يا فتى"

وقتها بكى، بكى لأنه كان يعلم أنه سيجرح نفسه حتى يطعنها، سيشعر بلذةٍ مؤقتة قبل أن يتسبب في الأذى الكبير لنفسه، وظل على هذا الحال كثيرًا، حتى أصبحت صرخاته عبارة عن نواحٍ حزين، فلم يعد قادرًا على الصراخ حتى.

لا يدري كم بقي على هذا الحال ولكنه أفاق حينما ساقه الحارس ناحية الخارج بعدما ذاق من الألم الويلات، ولكن العجيب أنه ما إن غادر الغرفة حتى وجد جسده سليمًا وكأن شيئًا لم يحدث، وقبل أن يفيق من ذهوله هذا وجد نفسه أمام الباب الخامس.

وأصبح شغله الشاغل هو ما الذي سيجده عِند هذا الباب، وقتها قرر أن يدخل بنفسه وألا ينتظر أن يدفعه الحارس، وقبل أن يتحرك الحارس قام هو واقتحم الباب، وكأن هرمون الشجاعة قد عاد يتدفق في جسده من جديد، أو كأن هناك قوة غريبة تبتهل لأجله وتمده بالطاقة والشجاعة كل حين.

طرد حيرته سريعًا من فكرة تبادل مشاعر الخوف والشجاعة بداخله مرارًا منذ أن انطلق في تلك الرحلة المُخيفة، ودلف إلى الباب، ومن أمامه فجأة وجد مرآة كبيرة، ضخمة، تسد الطريق من أمامه ليرى نفسه فيها بكل وضوح، كانت ساحرة وفاتنة، تنظر فيها فتتأمل نفسك وكأنك تراها لأول مرة، اقترب منها في رهبة وراح يتحسسها في خوفٍ وتوتر.

كان ملمسها ناعمًا، رقيقًا، وكأنها صُنعت من المرمر، اقترب منها وراح يتأمل ملامح وجهه في هدوءٍ تام، كانت ملامحه هادئة، رقيقة، ببشرته الداكنة وعيناه البريئة، أنفه الدقيق وخديه الممتلئين، حتى تلك النظرة الحائرة التي تخرج من عينيه

كانت جميلة، ولكنه بدأ يسمع صوت نواح، وكأن هناك من يبكون في هدوءٍ شديد، حاول أن يُرهف السمع ليعرف مصدر الصوت ولكنه لم يقدِر على هذا.

وقبل أن يفقد الأمل في معرفة مصدر الصوت أدرك الحقيقة، الصوت كان قادمًا من المرآة التي أمامه، وخاصة من، من نفسه، مِن هذا الذي يشبهه في المرآة، شعر وقتها وكأن خنجرًا باردًا قد اخترق نياط قلبه حينما رأى صورته في المرآة تبكي في مشهدٍ أليم، تنزف منها الدموع كما المطر، وتزداد الأعين احمرارًا، وحتى صوت النحيب راح يرتفع رويدًا رويدًا، لحظاتٍ فقط وتحولت الملامح من ملامح حزينة إلى ملامحٍ قاسية، شرسة، العينان قد اشتعلتا بالغضب وجحظت للأمام، والجسد راح يرتجف من شدة الانفعال، ثم تموج الوجه حتى أصبح وجهًا بشعًا، قبيحًا، ثم راح يضحك، يضحك بشدة.

ولكن الأمر تغير من جديد، لقد تموج الوجه ليعود إلى صورته القديمة، وبعدها تحولت الملامح لملامحٍ بشوشة، مبتهجة، وأشرقت ابتسامته على وجهه وكأنه الملاك الصغير، وظل على هذا الأمر طويلًا، تتحول ملامحه من الحزن إلى الغضب، ثم إلى السعادة، ثم الإحباط الشديد، ثم يتحول وجهه إلى شيطانٍ رجيم، وقتها انفجر شلالٍ بداخله من المشاعر المختلفة.

فالحزن بداخله يدفعه إلى البكاء بكل قوته، ولكن السعادة تحثه على المقاومة والابتسام، والغضب يحاول أن يدفعه لأن يحطم المرآة من الأساس، وقتها أدرك أن العذاب كله يكمن في تحكم تلك المشاعر نفسها به، فكلها لو اجتمعت عليه لأهلكته، لأحرقت روحه في قاع الجحيم، أدرك أنه من يجب أن يتحكم بها، فلا يُسرف فيها، ولا أن يجمعهما معًا مهما كان.

ثم راحت الكثير من المشاهد تُعرض على تلك المرآة من أمامه، رأى نفسه فيها يتحرك ويذهب ويجيء، يرى كل مشاهد حياته تمر من أمامه، يرى نفسه يبكي تارة، ويضحك تارة، ويغضب تارة، يرى نفسه يتلون بالكثير من الألوان، فكلما كان غاضبًا كان جسده يزداد احمرارًا، وحينما يكون سعيدًا كان جسده يشع نورًا رقيقًا، وحينما يبكي كان جسده ينطفئ ويزداد شحوبًا كأنه سيموت عما قريب، وقتها تحرك ليخرج من المكان، وكأنه وطالما دخله بإرادته فسيخرج منه بإرادته دونما انتظار الراعي.

وكم كان حدثه صحيحًا حينما رأى الباب من أمامه وحينما فتحه وجد الأمر سهلًا كي يخرج منه، وهناك وجد الراعي ينتظره، لم يعره انتباهًا وقرر أن يدلف إلى الباب قبل الأخير من نفسه حتى ينتهي هذا الأمر، ومن داخله نما شعورًا بأنه سيتأقلم على أي شيء، حتى لو كان هذا مثواه الأخير، وما إن فتح الباب قبل الأخير ودلف

منه حتى اشتعلت النيران من حوله، وارتجف جسده لمرآها، إنها النار التي لازال يقاوم خوفه منها، ولكن، ولكن...

هل سيبقى هكذا خائفًا، هل سيظل باكيًا مرتعبًا ما تبقى له من عمر، ربما، ولكن هرمون الشجاعة بداخله راح يتأجج رغم لهيب النيران أمام عينيه، وقرر ألا ينتظر أن تمس النيران جسده، بل سيلقي بجسده فيها وليكن ما يكون، ونظر لها نظرة أخيرة ثم وبكل ما تبقى بداخله من قوة وعزيمة قفز بجسده في قلب اللهب، وكان وكأن شيئًا لم يكن، انتظر أن يشتعل جسده، أن يشعر بالنار وهي تشوي لحمه، أن يغزوه الألم وينهش روحه، ولكنه لم يشعر بشيٍ أبدًا، كان وكأنه وسط مجرد أضواءٍ لا تنفع ولا تضر.

ظل هكذا طويلًا يفكر فيما يحدث له ولكن شيءٍ لم يتغير، مجرد نيران وهمية لا تمس جسده أبدًا، في النهاية قرر الخروج من الباب ليرى ما في الأخير من هولٍ، لينتهي من مرار الانتظار، فلو أتيحت له الفرصة سيُجدد عهده بالنار ويطلب منها العفو والسماح، ولو لم تقبله فليكن ما يكون.

خرج من الباب ليرى الراعي مترددًا في الاقتراب منه، وكأنه لم يتوقع أن يجد أحدًا بمِثل تلك الشجاعة في هذا المكان المُخيف، تجاهله تمامًا وتقدم ناحية الباب الأخير، واقتحمه كالفارس في لحظةٍ واحدة، وأُغلق الباب من خلفه ووقف يواجه

النهاية، الباب الأخير، ووقف وسط الساحة يترقب ظهور الشياطين، العقارب، حتى توقع أن يخرج عليه بشريًا، ولكن الغريب أنه لم يجد شيئًا.

وكأنه في غرفةٍ فارغة حتى من الهواء، انتظر طويلًا ولكن شيئًا لم يحدث، وهنا أدرك أن هذا المكان ما به شيءٍ، لقد تخطى العذاب، لقد تخطى السبعة أبواب أخيرًا، خرج وقتها واقتاده الراعي من جديد ليذهب به إلى النار، كي تحدد، هل ستعفو عنه أم ستقرر أن تعذبه عذابًا أليمًا، أما هو فقد استسلم تمامًا لمصيره، لقد تخطى العذاب مرة، ولو كان قدره أن يبقى هنا فلن يرى أكثر من هذا.

وصلا وقتها إلى المَعبرين من جديد، وكانت تقف في انتظاره تلك المرأة غريبة الشكل، تركه الراعي كي يعبر إليها كي تأخذه من جديد إلى النار لتحكم في أمره، قادته المرأة من جديد ليشتم رائحتها الغريبة، رائحة احتراق الأشياء في النار، عبرا معًا المتاهة الحجرية ثم وصلا إلى الساحةِ العظيمة، وهناك كان الأمر كما هو، أطفال في قمة البشاعة، ومن حولهم الكثير من البشر وأشباه تلك الشيطانة، والكل كان في حالة انتشاءٍ تام ما بين السُكر والزنا والمرح الكامل.

وهناك كانت تقبع كما هي، تلك النار الجهنمية التي تُشبه البناء الدموي، اقترب منها وهو يتذكر كل لحظة قضاها في هذا المكان الملعون، الأبواب السبعة والعذاب الكبير الذي لاقاه، مشاعر الأمل والسعادة والفرحة التي نُزعت منه إلى الأبد.

شعور الأمان الذي غادره وحل محله شعور الضعف والانهيار، وقتها فقط عادت النار تتحدث من جديد، كان صوتها أشدُ غضبًا وأكثر شراسة، وجهت له حديثها قائلة:

✷ كيف كان عذابي أيها العاصي؟

وقتها ورغم عدم اقتناعه بما سيفعل قرر الاستسلام التام، قرر أن يلوذ بالقوة التي لم يجد قوةً أكبر منها بعد، قرر أن يجدد العهد ويحتمي بالنار لعل هذا الجحيم أن ينتهي ولو قليلًا، لهذا أجاب في خشوعٍ واستسلامٍ:

▪ كان شديدًا، لم أتحمله ولن أتحمله أبدًا، لهذا جِئتكُ لأجدد العهد بك وأعلن الولاء والطاعةِ لكِ بأي شيءٍ تختارينه أنتِ.

ضحكت الحورية بصوتٍ عال وقالت:

✪ سيُنجب مني طفلًا أيتها النار.

ثم نظرت إليه نظرة رغبة قاتلة، اقشعر بدنه من مجرد التخيل بأنه قد يعاشر تلك الشيطانة، وقتها جاءت النجدة حينما قالت النار:

✷ سأكتفي بالسجود لي أيها العبد، ثم ستعود إلى هُنا المرةِ القادمة لتفعل ما آمرك به.

وقتها لم ينتظر ثانيةً واحدة وخر ساجدًا لهذا البناء المُلتهب، وقتها فقط أدرك أنه قد سقط في هذا الفخ إلى الأبد، فخ عبادة النار، وهنا أكملت النار حديثها قائلة:

* الآن اذهب فخادمنا سديم يحتاجك، ثم عُد إلى هُنا لتكون من رُعاتي المُخلصين.

وانتهى الحديث، ونهض على الفور ليخرج من قلب هذا الجحيم المُخيف، الجحيم الذي أخذ منه الكثير من روحه ومشاعره وحتَّى جسده، وصفت له الشيطانة طريق الخروج على وعدٍ أن يُنجب منها طِفلًا، وانطلق في طريقه ليخرج من هذا الكهف الملعون.

دقائق مرت من السير الممزوج بالوهن والضعف حتَّي خرج من الكهف كله، ولفحته أخيرًا نسمات الهواء الباردة، وقتها فقط شهق شهقة عنيفة وراح ينهل من الهواءِ في نهم بعدما كان يتنفس من النار والحِمم.

جلس أرضًا يلتقط أنفاسه وقد شعر أن جسده قد أصابه الكِبر وأن شعره قد شاب من كل ما رآه، ولكنه لم ينتظر كثيرًا، لأنه وفي لحظِة واحدة شعر بيدٍ تُوضع على كتِفه في قوة، انتفض من مكانه ليرى من أمامه إيوان بعينيه المُخيفة، صاح في انبهار:

■ إيوان، ما الذي جاءَ بكَ إلى هنا؟!

ابتسم إيوان ابتسامة خبيثة وقال:

□ جئتُ لأضع حدًا يا أخي لكل شيء.

نطقها بطريقة تُوحي بأنه يضمر له شرًا، تراجع أرجوان في خوفٍ وقال:

▪ ماذا تقصد يا أخي؟!

وقتها فوجئ أرجوان بعشرة من الجنود يحيطون به وهم يحملون السيوف الحادة، نظر من حوله في توتر وقال:

▪ ما الذي تنوي فعله يا إيوان!

صاح فيه إيوان وقال:

□ أنوي أن أقتُلك يا أرجوان، فقد أقسمت ألا يمس هيلانة غيري، لقد أقسمت أن أرث كل شيءٍ من أبي الملك سديم، ولن أسمح لكَ مهما كان أن تأخذ شيئًا من هذا.

جاوبه في خوفٍ كبير:

▪ ولكني لم آخذ منك شيئًا.

□ ولكن أبي يتمسك بك ولا أدري لما رغم عصيانك له في كل شيء، حتَّى إنه قد أرسلني لأرى هل ستنجح في الاختبار أم لا، وأنا قد علمت أنكَ قد نجحت بواسطة أحد الرعاة منذ قليل، ولكن أبي أعطاني الإذن بقتلك إن أنتَ عصيت النار ورفضت الخضوع لها، ولهذا لا مانع من قتلك وإخباره بأنك قد عصيت النار.

تراجع أرجوان أكثر وقال:

▪ ولكنه سيعرف أنني نجحت وأنتَ قتلتني.

□ وماذا سيفعل حينها، لن يتحمل قتل ولديه معًا، القليل من التوبيخ وسينتهي ذكراك بعدها للأبد.

ثم نزع سيفه من غمده ووضعه على عُنق أرجوان وقال:

□ ولكن هناك سرًا أود أن أُخبرك بهِ قبل أن أقتلك.

نظر له أرجوان وهو يبتلع ريقه في رعبٍ ولم ينطق، وقتها أكمل إيوان وقال:

□ أنا من ق..

واحتبست الكلمات في فمه حينما استقر سهمًا في عنق أحد جنوده، التفت حوله في قلق وصاح في جنوده:

□ احتموا سريعًا.

واخترق سهمًا جديدًا عُنق جندي آخر، وقتها ارتفعت صيحات المُسالمون، كانت صيحات غريبة، يتفوهون بكلماتٍ لم يسمع مِثلُها من قبل، ولكنها كانت تزرع الرهبة والخوف في قلبه، هرب سريعًا ليحتمي من هذا الهجوم المُخيف، وانقض المسالمون كالصقور على فرائسهم المُستسلمة، وارتفعت السيوف تشق الفراغ

لتمزق أجساد جنود إيوان، وارتفعت صرخاتهم المُتألمة تشق الفراغ، وعلى الأرض سالت دماؤهم كالأنهار.

تراجع أرجوان سريعًا واحتمى وراء صخرة صغيرة، ومن مخبئه رأى إيوان يترك جنوده ويهرب من المكان كله، نهض من مكانه وقد اعتلى الغضب وجهه وقرر أن يذهب ليقتله ثأرًا لنفسه، ولكنه ما إن نهض حتى سقط حجرًا متوسط الحجم من فوق الجبل واستقر بقوةٍ على رأس أرجوان.

شعر في لحظة بأن الدنيا كلها تدور بهِ وأن قدميه تهويان في بئرٍ لا قرار لها، ثم راح الظلام يدور من حوله سريعًا، ولم يستطع المقاومة وسقط في غيبوبة عميقة، غيبوبة ستكون السبب في تغيير كل شيءٍ، بداية من حياته كلها، ونهاية بحياة أهل الوادي جميعًا.

في تلك اللحظات كان المُسالمون قد أبادوا كل جُنود إيوان، وقف زعيمهم فوق الجُثثِ وهو يلتقط أنفاسه ويهمس بكلماتٍ غريبة، نادى في جنوده بأن يبحثوا بين الجثث عن إيوان، وعلى الفور تحرك الجنود كي يجدوا إيوان، ولكنهم عادوا إليه بعد الكثير من البحث ليخبروه بأن إيوان ابن الملك قد هرب من المواجهة، وصمه بالجُبن في نفسه ثم تحرك ينظر إلى الجثث في تأمل.

وقبل أن يأمر جنوده بالتراجع لمح جسدًا ممددًا على الأرض وقد سالت الدماء من رأسه، اقترب منه سريعًا وتأمل وجهه ثم ظهرت ملامح الخوف والقلق على وجهه ونادى في جنوده كي ينقذوه سريعًا.

بدأ الجنود في محاولة إسعافه بقدر استطاعتهم، ثم أمرهم بأن يحملوه معهم وينسحبوا من هذا المكان الملعون سريعًا، وبالفعل انطلق الجنود مُبتعدين ومعهم أرجوان، أرجوان الذي لم يكن يعي أن رحلته الحقيقية قد بدأت للتو، وأن كل ما مضى كان مجرد لعبة مقارنة بما سيلقاه الآن.

****

□ لقد مات أيها الملك.

قالها إيوان وهو يقف أمام الملك وقد اتسخت ملابسه وزادت أنفاسه، تطلع إليه الملك في غضبٍ وقال ثائرًا:

◈ وكيف حدث هذا؟!

□ لقد هاجمنا المُسالمون وقتلوه وقتلوا الجنود بعد خروجه من الكهف.

فكر الملك قليلًا ثم قال:

◈ هل نجح في تجديد العهد أم فشل؟

□ لقد نجح أيها الملك ولكنه مات قبل أن يذوق طعم النجاح.

ضحك الملك ضحكة متوترة، غريبة وقال:

◈ لا أدري، ولكني لا أشعر بالخير أبدًا، أشعر وكأن الأمور تسير ناحية الفناء.

شعر إيوان بالتوتر الشديد وقال:

□ لما تقول هذا يا أبي؟!

◈ لقد رأيت بالأمس وأنا نائمٌ فيلًا ضخمًا يضرب بخرطومه رأسي، ويُسقط عني تاجي.

□ رُبما كانت أحاديث نفسٍ.

◈ رُبما يا إيوان، رُبما...

****

شعر بجسدهِ من جديد بعد طول فقدان، كأنه قد استيقظ للتو من نومٍ طويل، ولكنه كان يقظ، عقله في أقصى حالات عمله، وقلبه مضطرب يضرب صدره بطريقة لم تحدث طوال حياته، كل ما حدث أنه استيقظ على تلك الصيحة الرهيبة، استيقظ مصعوقًا، فزعًا، ولكنه رغم فزعه الشديد يُدرك كل شيء، إنه ليس في الدنيا، لقد مات منذ زمنٍ طويل، وها هو يستيقظ من موته بعد عقودٍ من الزمان لا يُدرك عددها.

وأدرك بداخله أنه يجب أن يتحرك فورًا، ويخرج من تلك الحفرة ومِن هذا الظلام إلى الخارج، إلى أرض الحساب، فبداخله يُدرك تمامًا أنه يجب أن يُنفذ فورًا دون أدنى تفكير، فهناك دليل بداخله يجبره أن يتحرك فورًا، حتى حينما تساءل بداخله كان الجواب ساطعًا في عقله كالشمس وقت الظهيرة، يجب عليه أن يتحرك إلى أرض الحساب، إلى المحكمة العُظمى ودار الحقَّ، وقتها شاب شعره تمامًا، وأدرك أنه سيقع في كارثة ستحل به إلى الأبد.

فقاضي المحكمة لن يرفق به أبدًا، فكل أعماله كانت سيئة، وهناك المئات ممن ينتظرون مثِل هذا اليوم ليقتصوا منه، وربما يلتهمونه حيًا إذا سُمِحَ لهم بهذا، نهض من مكانه وخرج من تلك الحفرة العميقة، وكان الهول كله في انتظاره، الهول الذي لا يوجد مثله في حياته الأولى.

أعداد مهولة من البشر يخرجون من الحُفر، من تحت الأرض، الملايين بل ورُبما المليارات، الكل ينظر إلى الآخر بكل ذهول، عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، البعض قد شاب شعره من هول التفكير في الأمر، وبعض النسوة قد أجهضن أجنتهن دون ذرة ألم، كأنهن في وادٍ آخر من الفزع المُطلق، والكثير من التيه والضياع، فلم يعد للشعور بالألم قيمة وسط هذا الكم من الهول والفزع، حتى حينما تسائل في نفسه كان الجواب حاضرًا، جوابا لا يحتمل التفكير أو التكذيب.

****

إنه يومُ البعث

يوم خروج الناس لملاقاة ربهم، يوم يسير الناس ناحية أرض المحشر والحساب، في تلك اللحظات من الزمن، إن كان هناك قيمة للزمن، وجد نفسه وسط الملايين من الناس، يُساق معهم في طريقٍ طويل ناحية الأرض، الأرض التي نُصبت عليها المحكمة.

أرض غير الأرض التي عاش عليها لسنواتٍ في حياته الأولى، حتى السماوات كانت مختلفة غريبة، لقد سُلخت طبقاتها كما يُسلخ الشاة، ثم طُويت كطي صفحات الكتاب، الجبال قد تطايرت كأنسجة الصوف ثم نُسفت نسفًا، والنجوم والكواكب قد انفجرت وأصبحت أثرًا بعد عينٍ، والناس من حوله قد تباينت أشكالهم بطريقة رهيبة، فالبعض قد تغير لون وجهه إلى اللونِ أسودٍ حالكٍ مُخيف، والبعض ازدهر وجهه بالنور كأنه سعيد بما يحدث من حوله، الكل يتقدم.

الضعف يفتك به والعطش يمزق أوصاله، كأنه لم يذق طعم الماء لسنواتٍ طوال، السير وسط هذا الكم من الناس يزيده وهن، يشعر بأن جسده سيتفكك إلى ملايين القطع الصغيرة من شِدة الوهن، قدميه العارية تئن وتشتكي من طول المسير وعِظم المشهد، ووسط هذا الكم من الأفكار الرهيبة وحيث لا معنى للزمن أدرك بحدسه أنه قد وصل، إنها الأرض التي سيُحاسب عليها، بل إنها ساحة المحكمة الكُبرى،

ووقف مع الناس يترقبون ما سيحدث في اضطراب وقلقٍ وفزع، مشاعر لم يكن يتخيل في أبشع كوابيسه أنها قد تتواجد يومًا، ولم يستمر الأمر طويلًا لأن الشمس المُلتهبة اقتربت منهم كما الطَير العِملاق، كتنينٍ قد غطى السماء من فوق قطيع من النمل، تنين ينفث لهيبًا يُذيب القلوبِ قبل الأجساد.

واشتدت الأهوال على رؤوس الناس أكثر وأكثر، فكل تلك المشاهد وكل هذا الكم من الرعب لم يكن كافيًا، فالرعب تضاعف مرات ومرات، والوهن اشتد أضعاف وأضعاف حينما تعلقت الشمس فوق الرؤوس، وراحت تُلقي بحِممها ولهيبها في سخاءٍ وكرمٍ مُبالغ، كأنها تود لو أذابت كل تلك الجموع من البشر.

وقتها تحجرت الحناجر من شِدة العطش، كأنها أرضٍ قد سالت عليها الحمم لقرون من الزمان حتى تشققت وأصبحت قاحلة، وسال العرق من الأجساد كالأمطار الغزيرة، حتى إن البعض أصبح يسبح في بركة من العرق قد ألجمته وكتمت أنفاسهُ كلها.

ومن حولهِ رغم الملايين من البشر أدرك بحاسته المتأججة بالوعي أن هذا الحشر قد شمل الجِن والإنس وحتَّى الحيوان والطَير، كل من تحركت بداخله الروح يومًا ما قد وقف على تلك الأرض ينتظر، والشمس من فوقهم تغلي كالحمم، تُذيب الرؤوس وتمُطر الأجساد كلها بالعرق.

ثم ومن فوقهم نزلت أعداد مهولة من الكائنات الضخمة التي خُلقت من النور، ما بداخله يخبره أنهم الملائكة، إنهم خلق الله الأعظم من خلقكم، وتعجب بشدة من قوتهم وأحجامهم، فإن كانوا كذلك فكيف بمن خلقهم، إنهم يتنزلون من كل طبقات السماء كصفوف الجنود في المعارك، لا ينطقون بنصف كلمة، كأنهم يخشون خالقهم أكثر من أهل المحشر أنفسهم.

واشتد البلاء أكثر وأكثر على الناس، فالبعض قد غرق تمامًا في العرق، والبعض قد وصل عرقه إلى قدميه، وآخر إلى ركبتيه، وآخر إلى بطنه، الكل يرجو كأسًا واحدًا من الماء وقد يدفع لأجله كل ما يملك، ثم فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان، ورغم ضيق مكانه وسط الناس كان يرى ويعي كل ما يدور من حوله.

هناك رجلٌ جميل الهيئة يقف على حوضٍ ممتلئ بالماء العذب، الماء الأبيض الأشد حلاوة من العسل، إنه الرسول الأخير الذي أنزله الإله ليدعو الناس، وها هو يدعو من اتبعه ليسقيهم من الحوض، وتوافدت عليه الجموع، وعلِم من داخله أنه غير مدعو للشرب، ولم يكن ينفع الاعتراض أو كسر هذا الأمر أبدًا، فالملائكة من حوله يقفون، وإرادته قد تناثرت تمامًا فلم يعد يملك من أمره شيئًا، فحينما ينادى عليك ستتمكن من الحركة، غير ذلك فأنت تقف أسفل لهيب الشمس تئن وتتألم وتتعرق.

رآهم يتوافدون على رسولهم، كان يسقيهم بيده شربة ماءٍ واحدة، وكان كل من يشرب يُقسم بعدها أنه قد ارتوى وأنه لن يظمأ بعد هذا أبدًا، ثم رأى هذا الظِل العظيم، وأدرك فورًا أنه ظل الخالق، الإله الأعظم، لم يكن يُدرك بعدها ماهية هذا الإله، هل هي النار أم أن هُناك ما هو أقوى مِنها.

وانفطر قلبه حينما رأى البعض يستظلون بهذا الظل العظيم من جحيم الشمس، رآهم وكأنهم في نُزهة على شاطئ البحر يتمتعون بهذا الفضل العظيم، أما هو وغيره فالشمس تكاد أن تذيبهم تمامًا، اختنق صوته، وزاد عرقه، وجف حلقه، واشتد عطشه، وسالت دموع الفزع من عينيه، لا يدري إلى أي مصيرٍ مجهولٍ سيُساق، وإلى أي مأوى سينتهي به المقام.

ولكن جل همه كان في انتهاء هذا الوقوف المؤلم، هذا الموقف الذي صار كابوسًا وجحيمًا خالصًا لا ينتهي، ومرت الساعات والأيام، ورُبما السنوات، وهو على هذا الحال، جلده قد أصبح صلبًا كورق الصبار، والعطش صار عذابًا لا ينتهي، والعرق لازال يأكل في جسدِه ويمنعه من التنفس، تمنى وقتها لو دفع كل ما يملك لينتهي من هذا الأمر، لو كانت كل كنوز الدنيا بيده لدفعها دون أدنى تردد لينتهي من هذا العذاب الأليم، ولو كان الهلاك هو النتيجة فمرحبًا به، فالهلاك والفناء هنا هما قمة الرحمة والنعيم مِن هذا الشقاء.

ثم رأى الناس من حوله يجتمعون، قد اشتد عليهم العذاب وفاق أنينهم كل الحُدود، يتساءلون عن شافعٍ يشفع لهم من هذا الجحيم، يراهم يقتربون من رجلٌ ذو شأن، يقال أنه أبو البشر، يحاولون إقناعه بأن يشفع لهم عِند الخالق كي يبدأ في حسابهم على كل ما اقترفوه في حياتهم الأولى، يتحدثون في وهنٍ وذلٍ ومهانة:

❑ يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وسجدت لك الملائكة، فاشفع لنا عِند ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟!

الكل يترقب رد أبيهم، أول البشر، وأحد أنبياء الله، الكل يرجو أن يكون هذا هو شفيعهم، ولكنه يرد ردًا يحطم القلوب:

◉ إنَ ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبلهُ مثله، ولن يغضب بعدهُ مثله، وأنهُ قد نهاني عن الشجرةِ فعصيته، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوحٍ.

فينطلق الناس إلى نوح، يرجون، ويتوسلون إليه أن يكون شفيعهم مِن هذا الجحيم الذي لا يُطاق، يذكرونه برسالته، ويعظمون أمره حينما يقولون:

❑ يا نوح، إنك أنتَ أول الرسلِ إلى أهلِ الأرض، وقد سماكَ الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه.

فيجيبهم نوحًا في رهبةٍ وخوفٍ من الخالقِ العظيم قائلًا:

◉ إنَ ربي عز وجل قد غضبَ اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وأنهُ قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فينطلقون في رجاء ناحية الرسول إبراهيم، يتوسلون، ويذكرونه بمقامه عِند الله، يقولون له أنت خليل الله، ولكنه يقول ما قاله من سبقه، يؤكد حديثهم بأن الله قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله أبدًا، ويخبرهم بأن يذهبوا إلى موسى، ويكررون فعلتهم معه ولكنه يخبرهم أنه قد قتل نفسًا في حياته الأولى ويخشى من الله على هذا الذنب، ويخبرهم بأن يذهبوا إلى عيسى، الكل ينطلق تجاه عيسى يرجون الخلاص، يتعلقون بالقشة كما يتعلق بها الغريق، يُذكرون عيسى بمكانته عِند الله، ولكنه يرفض، ويؤكد كلام من سبقه، الله قد غضب غضبًا شديدًا اليوم، ونفسي نفسي.

قبل أن يسقط الناس من هول الصدمة يخبرهم بأن يذهبوا إلى مُحمدًا، هذا الرسول الأخير الذي نزل برسالة الإسلام، لعلهم يجدوا عِنده الخلاص، يذكرونه بمكانته عند الله في ذلٍ وخضوعٍ ويقولون له:

❑ يا محمد أنتَ رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه.

وقتها تحدث المعجزة، ويرد ردًا مُختلفًا حينما يقول:

✹ أنا لها، أنا لها.

ويراقبونه الناس وقد غزا الأمل نفوسهم، لعله يكون شفيعهم عِند الله فيرحمهم الله من هذا المكان الأليم، وهذا الحر الخانق، الكل يترقب، صامتًا كأنه قد فقد النُطق للأبد، بتعلق قلبه وجوارحه كلها بهذا الأمل، ويتقدم هذا الرسول تجاه الخالق العظيم، ثم يخر ساجدًا للخالق العظيم، ويخبره ربه بتِلك الكلمات التي تتعلق بها كل القلوب:

✡ يا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ[٦].

وقتها يرد هذا الرجل العظيم قائلًا:

✹ يا رب أمتي أمتي.

وهُنا تتمنى كل الخلائقِ لو كانت من أمة هذا الرجل، هذا الرجل الكريم الذي لم ينسى أمته وسط كل تلك الأهوال والمصائب الكُبرى.

وقتها فقط يبدأ الحساب، وتهوي القلوب بين الصدور في فزعٍ مُطلق، فالخالق قد قرر أن يحاسب خلقه الآن، ونُصبت المحكمة العُظمى، المحكمة التي سيكون القاضي فيها خالق الأولين والآخرين، وسُجَّانها زبانية وملائكة لا تعرف الرحمة

[٦] المصدر / صحيح مسلم الراوي/ أنس بن مالك

سبيلًا لقلوبهم، وسجنها.... مهلًا! أين العقاب لمن سيحكم عليه القاضي بالعذاب؟!

وهُنا سمعت الخلائق كلها صيحة هادرة، صيحة لم يتخيل مخلوقًا أن هناك مثلها، أو أن هناك من يستطيع أن يصيح بمِثلها، كأن صاحب تلك الصيحة ليس من كل هؤلاء، وكأنه وحش يمكنه ابتلاع كل هذا الحشد بكل بساطة.

وقتها فقط سقط المليارات أرضًا، حتى الأنبياء والرُسل والذين لهم مقامًا كبيرًا عِند الخالق، ثم كانت الزفرة، زفرة مُلتهبة نضجت بها الجلود، كأن هناك بركانًا عظيمًا قد ثار ثورة جبارة، والكل رغم سقوطه أرضًا من هول الصدمة رآها، وأدركوا مَن هي، إنها النار.

هذا المُخلوق البشع، الجحيم، السعير، الذي يتأجج في غضبٍ وثورة، الذي ما إن تنظر إليه حتى تذوب من شدة الحرارة والفزع، وقتها سمع همسات الأنبياء الأقرب إلى الله يقولون:

◉ يا رب سلِّم سَّلم.

ثم رأى ملائكة الإله يجرونها جرًّا، مُقيدة بسلاسل هائلة، جبارة، وكان لها سبعون زمامًا، ومع كل زمام كان هناك سبعون ألف ملك يمسكونها منه، وهي من وسط

كل تلك القيود تزأر وتثور، وأدرك الجمع يقينًا أنها لو أفلتت منهم لأحرقت كل من في أرض المحشر، حتى بمَن كانوا يُطيعون الإله.

كل تلك الحقائق كانت تنساب في عقله، عقله الذي تمدد وأصبح يُدرك كل تلك الأحجام والأعداد، عيناه التي شخصت وأصبحت ترى كل شيء، حتى تلك النار المُظلمة أصبح يراها رغم عِظم حجمها وعُمق قعرها.

وبصوتٍ جهوري سمع أحدهم ينادي، أحدهم سيتقدم إلى الحساب، وتزلزلت الصدور كلها، وتقدم الشخص برفقة الملائكة ناحية القاضي، كان مطأطئ الرأس، يكاد يذوب بين أيديهم من فرط الخوف والرعب، رأوه يقف أمام الإله، ولم تمضِ لحظات حتى سمعوا صوتًا غاضبًا يقول:

۞ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[٧]

وقتها تقدمت ملائكة العذاب تجاهه، رؤيتهم فقط كانت عذابًا، قيدوه بالسلاسل حتى تحطمت فقرات ظهره، قيدوا مؤخرة رأسه في كعب قدميه، كأنه قد انكسر إلى نصفين، ثم جروه ناحية جهنم، هذا الوحش الأسطوري الذي تموَّج من فرط النشوة والسعادة.

---

[٧] سورة الحاقة

وسمعوا صيحةً جبارة، صيحة الرجل حينما فُتحت لأجله أبواب النار وسقط في الهاوية، ثم نادى منادي من جديد، وأدرك الجميع أنه سيُحاسب حتمًا، سيُحاسب على كل كلمة تفوه بها في حياته الأولى، على كل همسة، وفِعل، والويل كل الويل لمن ظلم عباد الخالق وتجبر عليهم.

إنه يراهم هناك، يذوبون كما يذوب الزبد، إنهم من تجبروا في الحياة الأولى وقالوا نحن آلهة وأجبروا الناس على عِبادتهم، إنهم يدركون الآن أن الإله الحق سينسفهم نسفًا، سيحرقهم بنيرانه، ويعذبهم بعذابه الذي لا يُطاق.

وتقدم وقتها شخصٌ آخر، لحظات فقط وسمعوا صوتًا غاضبًا يقول:

۞ ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[٨]

تذكر نفسه وظل يفكر، إلى أين سيكون مصيره، وماذا سيُقال عنه، أسيكون مِثل هذا الرجل الذي قيل عنه خذوه فغلوه، أم كهذا الرجل الذي خرج من بين يدي القاضي يصيح في سعادة ويقول، "فُزت ورب الكعبة"واستمر الحال هكذا.

هُناك من يُسحب على وجهه وتلتهمه النار في مشهدٍ رهيب، وهناك من يُتقدم به ناحية الجنة، الأمر الذي تعجب منه هو حينما تقدم هذان الاثنان، الأول أخذ كتابه الذي كُتب فيه كل ما فعله في حياته الأولى بيده اليسرى، ثم وقف أمام الإله وهو

[٨] سورة الدخان

يُنكر ما كُتب في الكتاب، يُقسم أنه لم يفعل هذا ولا هذا، يتهم الملائكة أنهم قد كتبوا هذا بالباطل، يقول والله ما زنيت، ولا سرقت، ولا قتلت.

وقتها فقط شُل لسانه فجأةً بدون مقدمات، وتحدثت قدميه وقالت:

♦بلى يا رب أنا للسِرقة مشيت.

وتحدثت يديه وقالت:

♦ وأنا قتلت.

حتى ما بين فخذيه تحدث وقال:

♦ وأنا زنيت يا رب.

كان الرجل في حالة من الذهول، عينيه زائغة ووجهه أسود قاتم، ينتفض في ذلٍ ورعبٍ تام، وسحبوه على النار سحبًا وهو يلوم جوارحه التي شهدت عليه أمام الإله.

ثم تقدم رجلًا آخر، كان مطأطئ الرأس، الغم قد تكالب على وجههِ، يجر قدميه ناحية الخالق في ضعفٍ وخضوع غريب، ثم تلقف كتابه بيده اليمنى، الغريب أن هناك ساترًا وُضع من حوله كي لا يسمع أحدًا ما يدور بينه وبين الخالق.

ولكن الغريب أن صاحبنا كان يعي ما يحدث، هذا رجلًا يقرره الخالق بذنوبه ويعترف بها والألم يعتصره عصرًا، ولكن الخالق يُحب هذا الرجل، لهذا لم يفضحه بها أمام الناس، بل وغفرها له وجعله من الفائزين.

ورُفع الستار لينطلق الرجل وقد أشرق وجهه في سعادة ناحية الجنة، ثم هناك من تلقف كتابه من وراء ظهره، لا يجرؤ حتى على أخذ كتابه وهو ينظر لمن يعطيه إليه من فرط الذنوب المكتوبة في كتابه.

ثم نُصب ميزانا كانت توزن عليه أعمال الناس، من كانت ترجح كفة أعماله الصالحة كان يفوز، ومن كانت ترجح كفة أعماله السيئة يكون من الخاسرين، وأما من تساوت سيئاته مع حسناته كان يقف مع أناس مثله يقال لهم "أصحاب الأعراف".

ثُم تقدم أناسٌ كُثر نحو شيءٍ يسمى الصراط، وهو جسر أرفع من الشعر وأكثر حِدة من السيف، كان منصوبًا فوق النار وفي نهايته كانت الجنة بأبوابها الثمانية، بنعيمها ومائها وحورها، وعلى بابها يقف الرسول محمدٌ يُراقب الناس من أمته قائلًا كلما مر أحدهم على الصراط:

* يا رب سلِّم سلِّم.

لم يفهم لِمَ لم يتقدم للحساب هو الآخر، ولكنه رأى الناس يمرون من فوق الصراط، كان بعضهم يمر من فوقه بسرعة البرق، والبعض يمر راكضًا فرحًا، والبعض كان يزحف عليه مُرتعبًا من السقوط في النار، وهناك من سقط في قلب الجحيم بسبب تلك الأشواك الحادة التي كانت فوق الصراط وتمزق قدميه.

وهنا تحدث رب النار، تحدث بعد أن دخلها خلقٌ كثير، قال لها بصوته الجبار:

☼ ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾[٩].

وقتها تحدثت بصوتها المُخيف، المُرعب، المُزلزل للقوبِ كُلها وقالت:

✶ ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[١٠].

وكأنها تريد أن تحرق الأولين والآخرين، وكأنها تود لو ابتلعت كل من به شيءٍ من الروح، وهُنا وضع الجبار قدميه فيها، ولأول مرة يخضع هذا المخلوق وينزوي على نفسه في خوفٍ ورعب من خالقه ويقول،"قط قط".

وأدرك أن تلك النار بجبروتها وقوتها وثورتها لها إله أقوى منها، لها إله يأمرها فتُطيعه فورًا، بل لها إلهٌ قادرٌ على حرقِها وهي النار التي تحرق، وقتها تمنَّى لو احتمى بهذا الإله وتعلق به، لكان قد نجا حتمًا مِن هذا الجحيم المُخيف.

---

[٩] سورة ق
[١٠] سورة ق

ولا يدري كيف ولا متى انتهى كل الناس من الحِساب، ولا متى فُتحت أبواب النار وابتلعت هذا الكم الهائل من الناس في نهم، كانت نارًا مُظلمة كأنها قطعة من الليل الدامس، أخبره يقينه بداخله أن تلك النار أوقد عليها ألفُ عامٍ حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألفُ عامٍ حتى احمرت، وأوقد عليها ألفُ عام آخر حتى اسودت، فهي سوداء، مُظلمة، من يدخلها يُصاب بالعمى من شِدة الظلام، ولكنه يُدرك بحدسه كل ما فيها، وما أشد الإدراك وقتها، فالإدراك هُنا يفوق الرؤية عذابًا وبشاعةً.

وقبل أن يتحرك من مكانه حدثه الصوت بداخله بأن يتجه إلى النَّار، فقد أعرض الإله حتَّى عن حِسابه، وأن النار هي مثواه الأخير، وبما أن الإرادة في هذا المكان غير موجودة وأنتَ تفعل ما تُؤمر به مُرغمًا فقد تقدم ناحية هذا المخلوق الثائر المُخيف، تقدم ناحيته وبداخله عذابٍ لم يحسب أنه قد يتواجد يومًا، عذاب المشاعر التي تتأجج بداخله والتي كانت مزيجًا من الفزع والفزع والفزع الأكبر، فأنت تعي أنك ستتفحم في تلك النيران العظيمة بعد لحظاتٍ فقط، ستحترق في قلب نيرانٍ تتحدث وتصرخ وتلفح الوجوه المرتعبة بلفحٍ من الحريق.

اقترب منها ليرى الشرر المُتطاير منها، الشرر العظيم المُلتهب، كأنه قِطع من المنازل الضخمة العِملاقة، الشرارة الواحدة يمكنها أن تحرق أقوامًا وأقوامًا.

وعلى باب النار هُناك رآه، وأدرك فورًا أنه الخازن، سجَّان جهنم وزعيم ملائكة العذاب، إنه مالِك خازن النار، ملك من ملائكة الإله، عبوس الوجه لا يضحك أبدًا، تشعر وكأن الغضب والشِدة والبأس قد خُلقوا من ملامح وجهه، قاسي كالصخر، يُدرك تمام الإدراك أن كل من في النار يستحق العذاب، يعي أنهم قد عصوا الخالق العظيم، ويعلم أنه هُنا ليزيدهم عذابًا فوق عذابهم، وقهرًا فوق قهرهم.

ووصل صاحبنا إلى النار، وأصابه لفح من الحرارة أذاب لحم وجهه وتشوهت ملامحه كُلها، ثم جاءه صوتٌ عظيم رج كيانه كله وقال له:

✶ اقترب.

وبأقدامٍ تلتهب بلفح جهنم تقدم أكثر وأكثر، ورغم ظُلمة جهنم الشديدة رأى بعينيه كل ما يحدث فيها رؤية العَين، وصرخ صرخةً رهيبة حتَّى تمزقت أحبال صوته جمعاء من هول ما يرى، لدرجة أنه تمنى لو احترق ومات فورًا ولا أن يرى تلك المشاهِد البشعة التي ما كان يظن أنها قد تحدث في أكثر خيالاته رُعبًا وبشاعةً، وسمع الصوت من جديد يتحدث بقسوة قائلًا:

✶ تأمل في كل ما تراه وإلا أسكناك جهنم لتشعر بما يشعروا به.

وجحظت عيناه فورًا ليلتهم بها كل المشاهد والمناظر البشعة التي تحدث بداخل هذا الكيان المُظلم العظيم، وأول ما رأى رجلٌ يقف في مكانٍ صغير وفي قدميه نعلين من نار خُلقوا من نيران جهنم، كان يضع يده على رأسه بقوةٍ ويصرخ صراخًا عظيمًا، لقد كان النعل يتسبب في غليان دماغ الرجل كأنه إناء به حساء يغلي.

وكان الرجل يصرخ بأنه أكثر أهل النار عذابًا وهولًا، نظر لدماغه فرآها تفور، تنضج كما الحساء، والرجل لا يتوقف عن الصراخ، ثم عَلِم من خلال صوته الداخلي أن هذا هو أقل أهل النار عذابًا، وتقطرت دموعه من صدمة الحديث، إن كان هذا أقلهم عذابًا، فكيف بالآخرين، ويبدو أنه كان على موعِد مع المعرفة، المعرفةُ التي تمزق الأفئدة وتحطم النفوس، فما إن تساءل عن هول هذا المخلوق الذي يُسمى بالنار قيل له بأن نار الدنيا كلها بلهيبها وحممها ما هي إلا جزء واحد من سبعين جزء من نار جهنم.

ثم وبصوتٍ رهيب فُتحت أبواب النار كُلها، ومع كل بابٍ كان يُفتح كان يعرف اسم هذا الباب، فهذا هو الحُطمة؛ الذي تتحطم فيه كل الأشياء من شِدة عذابه، وهذا هو الهاوية؛ حيث النار الحامية التي تحرق اللحوم والجلود وتُذيبها كما الزبد، وهذا هو لظى؛ وهو أشد أبواب النار حرارة، ونزاعةً للشوى؛ يُشوى فيه الناس كما الطعام على الفحم، وهذا سقر وهذا الجحيم وهذا باب جهنم.

وما إن نظر إلى الأسفل حتى رأى النار تمتد للأسفل إلى ما لا نهاية، كأنها هاوية ليس لها من قرار، حدثه الصوت بأن الوصول لقعر جهنم يتطلب سبعين عامًا من السقوط حتَّى تصل إلى قاعها، وانتفضت كل جوارحه لتلك الحقيقة البشعة المُخيفة، فمن كان مثواه في القعر فهو لازال يهوي في الحريق ولم يصل بعد.

ثُم وفي لحظةٍ جاءته كل صرخات أهل النار، وكأنه قد أُذِن له أن يرى ويسمع أيضًا، ووصلته مليارات الصرخات المهولة التي تُفقد العقل كل أمارات التفكير وتُلقي به في بحورٍ من الجنون والعذاب الرهيب، الصرخات كانت هائلة، مستغيثة، بشعة، تدل على شِدة عذاب أصحابها، إنهم يحترقون، تذوب لحومهم، وجلودهم، وحتَّى عِظامهم، وهم يتأوهون بآهات لا تتوقف، آهات مُعذبة تفطر القلوب وتُدميها.

ولكن الأمر لم يتوقف بعد، لقد كانوا يبكون من عيونهم دماءً، دماءً لو جرت فيها السفنُ لجرت من كثرتها وغزارتها، في تلك اللحظات لم يعد يتحمل كل تلك الأصوات وكاد أن يحطم رأسه من شدتها حتَّى هدأت كثيرًا ولم يعد يسمع سوى بعضًا من الأنين.

وعاد يراقب وينظر من جديد بداخل هذا الكيان المُظلم الرهيب، وقتها فقط تراءت له مئات المشاهد التي تمزق الفؤاد وتُفتت الجوارح كلها، فهذا يأكل من

صديدٍ بشع ينزل من جسده، وهذا يشرب من ماءٍ مُلتهب يُذيب معدته ولحم بطنهِ وينزل منه، وتِلك المرأة تأكل شوكًا يُمزق حلقها وجسدها، وتِلك العقاربُ الضخمة تلدغُ رجالًا وتفتتُ جلودهم ولحومهم المُتفحمة.

ولكن في تلك اللحظة توقف كل شيٍ، كأن المشهد كله قد أصابه الثبات والجمود التام، ومن أمام النار جاء بعضُ من الملائكة ومعهم كبش ضخم مخيف الشكل، كل أهل النار رأوا هذا المشهد، وحتى أهل الجنة في الجانب الآخر قد انتبهوا ونظروا تجاه هذا المشهد، ثم تهامس الجميع فيما بينهم.

****

إنه الموت

نعم نحن نعرفه

لقد ذُقنا سكراته وعذابه ونعرفه جيداً

ثم وفجأةً نحر أحد الملائكة هذا الكبش وقتله، ثم خرج ذاك الصوت الجبار لينطق بتلك الكلمات التي بثت كل مشاعر الحزن والقهر في قلوب سكان النار والفرحة والسرور في قلوب أهل الجنة.

"يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت"

وأدرك أهل الجنة أن ذاك النعيم وتلك الأنهار والقصور والحور سيتنعمون بها إلى الأبد، ونزل الخبر كالصاعقة على أهل النار حينما علموا أن النار ستأكل فيهم إلى ما لا نهاية، هذا العذاب أبدي، ولحُومهم وجلودهم ستبقى في هذا الفُرن الملتهب دائمًا وأبدًا.

وتغيرت الوجوه كلها، كأنهم قد شابوا ملايين السنين، لقد كانوا على أمل أن يخرجوا من هذا المكان ولو بعد مليون سنة، ولكن وبعد تلك الكلمة، كلمة الخلود، فمليون سنة شيء لا يُذكر مقابل الخلود، وعادت الصرخات من جديد، وعاد العذاب يشتد من جديد، رأى هذا الرجل في قعر جهنم يركض في قلب

الجحيم تجاه هذا الجبل المُلتهب، يحاول الصعود عليه ليهرب من هذا الجحيم، وضع كفه عليه فذابت من شِدة الحرارة، ووضع قدمه عليه فذابت، فوضع جسده كله عليه وراح يزحف كالحيوان لِمَا فوق الجبل، يزحف ويزحف والنار تأكل في جسد كله وهو يصيح ويتأوه.

ما جاء في خاطره أن هذا الرجل سيزحف في هذا الجحيم لسنواتٍ حتَّى يصل إلى قمة الجبل، وما إن انتهى هذا الخاطر حتَّى رأى الرجل على قمة الجبل، وقبل أن يلتقط أنفاسه هوى في قلب النار من جديد، سبعون عامًا جديدة من الاحتراق حتَّى يصل إلى القعر، يتفحم، يصرخ، ثم يحاول الصعود مجددًا، وهكذا سيظل لملايين السنين في هذا اللهيب المستعر.

الغريب أنه لمح أناسٌ كُثر قد خرجوا مِن النار، وعلم أنهم قد خرجوا قبل ذبح كبش الموت، وأدرك أنهم كانوا في النار ولكنهم خرجوا بسبب شيء يسمى الشفاعة، فهذا الرجل له صاحبٌ في الجنة اشتكى إلى ربه وقال:

"يا رب ما لي لا أرى صاحبي معي في الجنة"

فأشفق عليه الإله لتكتمل فرحته بالنعيم وأخرج له صاحبه، وهذا له قريبٌ قد مات شهيدًا وهو يدافع عن دين الإله، فكتب له الإله نعمة عظيمة وهي الشفاعة لأناس يعرفهم من أهل النار، ثم كانت شفاعة الأنبياء والصالحين.

ثُم علِم أن الله قد أخرج أناس عددهم أكبر بكثير ممن خرجوا وقيل أنهم عُتقاء الرحمن، أناس قد آمنوا به ولكنهم عملوا المعاصي والمنكرات فقرر الرحمن أن يرحمهم من هذا العذاب ويخرجهم منه.

نظر إليهم وهو يحدَّث نفسَه بأن هؤلاء قد نجوا بغير حولٍ لهم ولا قوة، وأدرك بعدها أن الكبش قد ذُبح، وأن أبواب النار كلها قد أُغلقت للأبد على سُكانها، وعاد ببصره من جديد ليرى أهل النار وكيف حالهم.

ولكنه سمع من قلب النار أصواتًا عاليةً وشجارًا كبيرًا، فنظر سريعًا فرأى أُناسًا يدعون الله في إصرار ويقولون

﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾[11]

وتساءل في نفسه سريعًا عن السبب الذي يجعل من يتعذب يتمنى لغيره أضعاف العذاب، وفطِن سريعًا أن هؤلاء أراذل القوم ممن تبعوا السادة والكُبراء الذين أضلوهم عن اتباع الرُسل والإيمان بالله، وكان جزاء اتباعهم إياهم أنهم تعذبوا في قلب هذا الجحيم، لذا تمنوا من الله أن يعذبهم أضعافًا مُضاعفةً هذا العذاب.

ثُم رأى هذا المخلوق البشع الذي يُقال له إبليس في قلب النار يقف فوق مكانٍ عال ومن حوله تجمع أهل النار، كان يصيح فيهم بصوتٍ هادر

[11] سورة الأحزاب

● ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[١٢]

وقتها رأى الناس يتساقطون من هول ما يسمعون، يأكلون أيديهم حسرةً وندامةً، فهذا الشيطان الذي كان يغويهم في الدنيا بمعصية الإله يتبرأ منهم ومن أفعالهم كلها، ويخبرهم بأن ما كان يدعوهم إليه هو الباطل، وأن وعد الله هو الحق، بل ويطلب منهم ألا يلوموه ويلوموا أنفسهم.

وقتها رأى الحسرة تمزق القلوب، وتُدمى العيون، وتشرخ الأرواح، الكل يتمنى لو لم يتبع هواه ونفسه والشيطان، الكل يتمنى لو خالف غواية الشيطان واتبع طريق الإله العظيم، ولكن الوقت كان قد فات، والعذاب قد نُصب وأصبح أمرًا شديد الواقعية.

ثم نظر سريعًا لمكانٍ آخر بسبب صرخةً عظيمة، وإذا به يرى رجلٌ قد قُيد بالسلاسل، فدخلت سلسلة في فمه وخرجت من دُبره، ودخلت أخرى في كفه وخرجت من خده، وتم تكبيله من قِبل الزبانية الأشداء، ثم راحوا يضربونه بمقامعٍ من حديدٍ، يحطمون عظامه، ويمزقون لحمه، وهو بين أيديهم يصرخُ، ويستغيث، ويستجير منهم بأي أحد، ولكن كل مَن كان حوله كان في الجحيم

[١٢] سورة إبراهيم

سواء، يختلف العذاب والألم واحد، ثم جاء موعِد الطعام، وتجهز الطعام لكل أهل النار.

واشتعلت شجرة عظيمة تنبت من قعر الجحيم يقال لها شجرة الزقوم، ثمارها كانت بشعة الهيئة وكأنها رؤوس الشياطين، ثمارها كانت ملتهبة، تتقطر منها قطرات نتنة الرائحة، بشعة، وفي زجرٍ وقسوة دفع الزبانية المُعذَّبون كي يأكلوا منها، ويا ويلهم، تغيرت ألوان جلودهم، وجحظت أعينهم، وصرخت ألسنتهم من بشاعة ما يأكلون.

ثم تجهز الغِسلين لآخرون، وهو الصديد والقيح الذي كان يتساقط من أجسام الناس، كان بشعًا، نتنًا، مَن نظر إليه مات هولًا من فرط البشاعة، ويا للهول، كان هذا هو طعام بعض أهل النار، يسقط في حلوقهم فيشعرون بحرارة ومرار لا مثيل لهما، حتى يكاد الواحد منهم لو يُفرغ كل أحشائه من بشاعة ما يأكل، ثم رأى آخرون يتقدمون من شجرةٍ ملتهبة يقال عنها الضريع، أشواكها عظيمة، لا تُسمن ولا تُغني من أي جوع، أكلوا منها لتتمزق أعناقهم من صلابة أشواكها وحِدتها.

وما إن صرخوا طالبين الماء حتَّى ارتفع تجاههم الحميم، وما إن لفح وجوههم حتَّى تساقطت جلودهم وتشوهت ملامحهم، ومن شِدة عذاب الشوك تجرعوه، ونزل الحميم إلى الأمعاء ليقطعها ويسيل منها كالحِمم المُلتهبة، وتزايد صياحهم،

وآهاتهم، وتوسلاتهم، ولكنهم كانوا كلما يتوسلون كان العذاب يتغير، ويزداد قوةً وبأسًا، والزبانية كانوا يتفننون في أصناف العذاب المُهين، فتلك نار تحرق، وعقارب وحيات تلدغ، ومقامع من حديد تضرب، وسلاسل وأغلال تُكبَّل.

حتَّى إنه حينما أمعن النظر وجد أهل النار يلبسون، كانوا يلبسون ثيابًا من النار نفسها، ملابس فُصِلت لأجلهم، تحرقهم وتُزيدهم عذابًا إلى عذابهم، وألمًا فوق تألمهم، ثم فجأةً سمع صوتًا عذبًا قادمًا من مكانٍ آخر، إنهم أهل اليمين الصالحون، يتساءلون ويسألون المجرمين:

◈ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[١٣]

يتعجبون مِنهم، كيف يُلقي المرء بنفسه في قلب هذا الجحيم دون أن يتحاشاه، وعلى الفور جاء الجواب من أهل هذا الوادي شديد الحرارة حينما قالوا:

◙ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ۝﴾[١٤]

وأدرك أن سقر تحرق كل من ترك صلاته، وكل من لم يُطعم المساكين، وكل من كذَّب بهذا اليوم العظيم، بل وحتَّى كل من خاضوا في الباطل مع كل أصحاب

---

١٣ سورة المدثر
١٤ سورة المدثر

الباطل فقط لمجرد الخوض والجدال، واشتد اليحموم عليهم وقتها، ذاك الدخان العظيم الخانق، حتَّى أصبحوا يتنفسون النار، ويأكلون النار، ويشربونها بل ويلبسونها، هذا عالم من نارٍ تحرق لا سبيل للهرب منه أبدًا.

وبدأت رحلة لا تنتهي من النداء والاستغاثات والآهات، رحلة يشوبها بعضٍ من الأمل أن يُشفق عليهم أحدِهم ويُخرجهم من ذاك الجحيم الأبدي، وبدأت الأمنيات الأربعة تشق طريقها في قلب الجحيم الأبدي، وبدأوا ينادوا من وسط صيحاتهم وآهاتهم البشعة، ينادوا ربهم العظيم، يُناجونه كي يُجيبهم، كي يُحدثهم ويرحمهم، وبدأوا ينادوا بأصواتٍ تتمزق:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾[١٥]

ينادون بها كثيرًا، كثيرًا جدًا، أعمارًا طويلة وسنواتٍ عظيمة تمر بعمر الأرض وهم ينادون بنفس الجُملة بدون كلل أو ملل، فما من سبيل للخروج من هذا الجحيم سوى ذاك السبيل، والزمن هُنا لا يعني شيئًا، لذا لم يتوقفوا عن النداء، حتَّى بعدما مرت كل تلك السنوات، وفجأةً وبدون أي مقدمات جاء الجواب، جاء الجواب مِن رب النار، جاء الجواب ممن بيده العذاب وبيده الرحمة، وسمع الصوت كل أهل النار جميعًا.

[١٥] سورة المؤمنون

۞ ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[١٦]

ووقع جوابه عليهم كالصواعق المُلتهبة، لقد رفض الإله أن يخرجهم منها، الإله الرحيم الودود يرفض حتَّى الحديث معهم، يا للكارثة، ثم بدأوا في الأمنية الثانية، إن كان الله يرفض منهم الحديث فليناديوا على هذا المخلوق الضخم، فليناديوا على خازن النار مالِك، لعلهم يجدوا عنده الشفاعة أو النجاة، فينادوا على مالك بأمنية ثانية.

▣ ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[١٧]

يريدون الموت والفناء لينتهي هذا العذاب الأليم، يناجونه كي يشفع لهم عِند الإله كي يموتوا وينتهي هذا الألم العظيم، ولكن مالِك سكت عنهم طويلًا، سنواتٍ طوال وهم ينادونه، يترجونه، ويتوسلون، وهم يصطرخون فيها ويتألمون، وأخيرًا جاءهم جواب مالِك خازن النار، جاءهم بصوتٍ يدوي في جهنم كالرعد.

➢ ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[١٨]

ونزل الجواب الثاني عليهم كالنار التي يتعذبون فيها، سيمكثون فيها ولن يخرجوا، فها هو الله رفض حديثهم، وأقرَّ مَالِك بمكوثهم فيها، ولكنهم لم ييأسوا، وراحوا

---

[١٦] سورة المؤمنون
[١٧] سورة الزخرف
[١٨] سورة الزخرف

ينادون الزبانية، يترجونهم، ويتوسلون إليهم بكل التوسلات، يصطرخون بتلك الكلمات.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾[19]

وكانت الأمنية أقل من سابقتها بكثير، فقط يومٍ واحد يُخفف عنهم هذا الجحيم، يومٍ واحد يستريحون فيه من اللهيب والسعير والاحتراق، وبعد كثيرٍ جاءهم الجواب الاستنكاري من الزبانية.

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[20]

فأجابوا في حزنٍ وقهرٍ.

﴿بَلَىٰ﴾[21]

فجاءهم الرد الأفظع حينما قال الزبانية:

﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[22]

---

[19] سورة غافر
[20] سورة غافر
[21] سورة غافر
[22] سورة غافر

كل هذا وهو يُراقب كل ما يحدث برعبٍ تامٍ، لقد وصل الأمر إلى مرحلة رهيبة، لقد كُتب على هؤلاء عذابٌ أبديٌ بلا رحمةٍ أو أية شفقةٍ، ولكنهم تمنوا أمنية أخيرة، إنهم يدركون أن هناك أناسًا يعرفونهم يهنئون بالجِنان، يشربون الماء البارد ويأكلون من أشهى الطعام، وهم في قلب الجحيم يحترقون، وهكذا وجهوا نداءهم تجاه أهل الجنة، يطلبون منهم ولو شربة ماءٍ قائلين:

▣ ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾[٢٣]

أي شيءٍ مهما كان صغيرًا، يتوسلون، ويترجونهم، ولكن الجواب الذي كان القشة التي قصمت ظهر البعير جاء حينما جاء الرد قائلًا:

◈ ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢٤]

وهنا فقط أصابهم اليأس والمرار الذي لا مرار بعده، لقد استحقوا بأفعالهم التي فعلوها بأن يعرِض عنهم الجميع بلا استثناء، الخالق والخازن والزبانية وحتَّى أهل الجنة جميعًا.

وهنا زادت الصرخات الرهيبة من القاع وحتى القمة، صرخات عتاة الكُفر من القاع تمتزج بصرخات الكفار والمُشركين، والزبانية لم يتوقفوا، بل زادوا في العذاب

---

[٢٣] سورة الأعراف
[٢٤] سورة الأعراف

عذابًا، وتسعَّرت النار بلهيبٍ أشد، وزادت حرارتها، ونبتت الجلود مرارًا لتحترق وتتفحم، ثم نبتت من جديد لتحترق وتتفحم.

حتَّى ذاك الرجل الذي كان يصعد الجبل لازال يفعل ويهوي منه في قاع الجحيم، جحيم متصل، وعذابٌ لا يتوقف، وربٌّ غضبان، وزبانية لا يتوقفون عن عذابهم ولا يرحمون، وقتها سمع وهو ينظر لهذا الهول صوتًا من خلفه، كان الصوت هامسًا، مُخيفًا، وكل ما تحدث به الصوت أن قال:

➢ هيا لتأخذ دورك في العذاب.

ثم شعر بدفعة عنيفة أطاحت به ناحية النار، النار التي فُتح بابها، وهوى في قلبها، في قاع الجحيم، نحو الهاوية، مرورًا بجهنم والحُطمة وسقر والسعير والجحيم ولظى، وصرخ صرخة هائلة، صرخة غطَّت على كل صرخات المُعذبين في قلب الجحيم

****

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٢٥]

****

[٢٥] سورة التحريم

لم يبتلعه الجحيم، ولم يشعر بالنيران تأكل في لحمه، وإنما وفجأةً وجد نفسه مُعلقًا كما الشمعة في سائلٍ شفاف يُشبه الماء، ومن حوله يتسع المكان وكأنه في قلب محيطٍ ليس له نهاية، كان ثابتًا، وكأنه تمثالٌ من الشمع، عيناهُ تريان وأذناه تسمعان ولكن جسده لا يستجيب أبدًا، ومن بعيد رأى، رأى ذاك الرجل يتقدم ناحيته في هدوءٍ وسلاسةٍ غريبةٍ، كأنه يطفو في السائل بكل سهولة ويُسر، تحدث هو وقال بصوتٍ متوتر:

▪ مَن أنتَ وأين أنا؟!

جاءه الرد سريعًا بصوتٍ هادئ ووقور قائلًا:

◘ أما عن أين أنتَ فلا يهم، وأما عن مَن أنا فقد تقابلنا مِن قبل، كُنتُ في الزنزانة أقص عليكَ حكاية فتى أصحاب الأخدود الذي حارب الملك وتغلب عليه، اتسعت ملامحه من الذهولِ، وقال:

▪ لقد بحثتُ عنكَ ولم أجدك!

◘ لا يهم، فأنا أذهب وأجيء بأمر الله، ولعبادٍ اختصهم الله بفضله.

▪ أتقصد الله الذي خلق النار نفسها؟

◘ نعم يا ولدي، هو.

▪ أتوسل إليك أخبرني، هل سأتعذب في تلك النار العظيمة؟

◘ الاختيار لكَ أنتَ، فإما أن تنجو بنفسك وتؤمن بالإله، أو تكفر به وتعصيه، فيكون مثواك النار.

▪ ولماذا جِئت إليَّ الآن؟

◘ جئتُ لأُخبرك عن أشياءٍ كثيرة، وأُعطيك سلاحًا كبيرًا تهزم به الملك شر هزيمةٍ.

▪ وأنا مستمعٌ لكَ أيها الرجل.

◘ لقد جاءني الخبر لأزورك، لمُحاربة سِحرٌ يُسمى الهاجس، كما جاءني الخبر مِن قبل وزرت فتى يسمى أحمد في مملكة مارق، ودعمته للقضاء على هارمونيا تلك الساحرة البغيضة التي ادعت أنها إلهٌ مِن دون الله، وقد ذكر الفتى كل هذا في كتابه "إن الله سيبطله"[٢٦] ولكن ليس هذا حديثنا، فقد جئتُ لأخبرك أن سحر الهاجس هذا لا ينتهي، وكلما حاربته وهزمته في أرضٍ خرج في أرضٍ أُخرى بقوةٍ جديدة، ليضل العباد عن عبادة رب العِباد.

وقد استطاع الشيطان أن يدل سديم عليه، واستطاع سديم أن يسحر أهل الوادي بهذا السِحر البغيض، بل واستطاع أن يوهمهم بأن ربهم مُجرد نارًا تحرق بدون أي تفكير، واختلق الحكايات والقصص عليهم حتَّى اقتنعوا بأن إلههم هو نار هذا الجبل، وأنه هو خادم هذا الإله، نفس ما يتبعه الطغاة في كل زمانٍ ومكانٍ، يُبعدون

[٢٦] راجع رواية (إن الله سيبطله) الجزء الأول للكاتب أحمد محمود شرقاوي

الناس عن عبادة الله ويأخذونهم في طُرقٍ خبيثةٍ تُغضب خالق الأرض والسماوات، ولكنكَ وبأمر الله كنت ترفض كل هذا في قرارةِ نفسك، وكان الملك بسحره يعي كل هذا ويحاول أن يُمارس سحره عليكَ ليفوز بدعمك له، لأنه وقتها سيعرف كيفية قهر كل من يعصيه بهذا السحر، كُنت كتجربة يخوضها هذا الملك ليختبر قوة سحره.

وقد بدأ بسحرك حينما سقاكَ من القارورة وجعلك تخوض تلك الرحلة المُخيفة في جزيرة الشر تلك، حيث يقبع الشيطان وسِحر الهاجس معه، وسقطتَ أنتَ في دائرة من الأوهام والتخيلات قادرة على إتلاف عقلِك إلى الأبد، وكله بسبب ما سقاكَ إياه الملك وشرِبت منه.

توهمت بوجود الضُفدع وبحديثه، ثم بوجود الأطياف المُخيفة والتي ما كانت سوى شياطين خبيثة، ثم دخلت إلى الكهف، إلى أرض الشياطين والسِحر، وهُناك كانوا ينتظرونك ليجعلوك واحدًا مِنهم، كافرًا بالله مؤمنًا بأي شيءٍ غيره، لا يهم، المهم ألا تؤمن بالله نفسه.

دخلت مع الحورية إلى النعيم، لترى الدنيا من منظور الشيطان نفسه، الجنة التي وعد الشيطان بها الناس، مُجرد مستنقع من الجحيم تُفعل به الفواحش، فرأيت الرجال يزنون بحورياتٍ بشعاتِ الخِلقة، وتلك ما كانت إلا الحقيقة، فالزنا ما هو

إلا وكأنك تُعاشر الشياطين نفسِها، لقد رأيت الزنا في صورته الحقيقية، شيئًا بشعًا، وكأنك تعاشر شيطانة لا بشرية، وذلك لأن الله قد اختصك بموهبةٍ، فما استطاعوا سحرك لترى تلك الحوريات جميلات أبدًا، ورأيت الزنا في صورته الحقيقية.

ثم رأيت الدنيا كلها بملذاتها وشهواتها من خلال تلك النار، مبنى ملتهب، يتنعم فيه الناس في غُرفٍ، يسكرون، ويزنون ويسمعون الألحان، وكل هذا بسبب موهبتك، فقد رأيت كل من يفعل ذلك في قلب النار، لاهيًا لا يعرف أنه سيحترق عما قريب بكل هذا.

هذا أقصى ما حاول الشيطان أن يغويك به، حورية بشعة لم تستطع أن تتجمل لك، ومبنى من النيران يسكرون به، وحينما رفضت أنتَ حتَّى وبعد أن أوهمك الشيطان أن النار تتحدث، ولا نار تتحدث سوى جهنم فقط، وحينما رفضت قرر أن يُريك عذابه، وما كان عذابه سوى أن ترى الدنيا على حقيقتها.

فدخلت إلى الباب الأول؛ وما كان الباب الأول سوى الأوهام والاكتئاب وتأنيب الضمير الذي يمزق الإنسان ويُدمره، فالمرء لا يزال يتذكر الحُزن والأمور السيئة ويظل يلوم نفسه بسببها، حتَّى يفقد حياته كلها في هذا البحر الملوث من الذكريات والمشاعر المميتة، كما فعل معكَ، وظللت تندم على موت أمك مع أنكَ لست مُذنبًا في هذا أبدًا، لقد ماتت لأن الله قدَّر هذا، وليس لأنك فعلت كذا، هكذا هو

الإنسان، قد يدخل في جحيم الشيطان من خلال باب الذكريات السيئة ولوم النفس الشديد، فاحذر منه كثيرًا يا فتى.

ثم كان الباب الثاني؛ ورأيت العقارب تركض ناحيتك لتلتهمك، وما كانت تلك العقارب سوى شهوات النفس من كل شيءٍ محرم تشتهيه، فكلها عقارب تركض ناحيتك لتقتلك، وما إن سقطت أنت فيها حتَّى أصبحت عقربًا ضخمًا قادرًا على التهامك، فاحذر من السقوط أمام الشهوات الصغيرة لأنها قد تكبر يومًا وتقتلك بسمها، فاشتهاء المال والنساء والطعام والشراب بالطرق المُحرمة لو اجتمع عليك لقتلك، وما كان الثُعبان الذي التف مِن حولك سوى قرينك الذي يأمرك بالمعصية، فهو ثعبان خبيث، يلتف عليك بمهارة، ويهمس في أُذنك بكل سمومه ليقول "جدد عهدك مع النار" وكلمات على غِرار هذا لتعصي الله.

ثم كان الباب الثالث؛ حينما رأيت الناس يُعذَّبون، وما كان هذا سوى تجسد لمخاوف الإنسان، فكل المخاوف هي قيود وأغلال تجر الإنسان ناحية العذاب والألم الشديد، وحينما رأيت القيود سهلة الفك كان كناية عن استطاعة هؤلاء من التحرر سريعًا، ولكنهم رفضوا وظلوا أسرى لمخاوفهم وأفكارهم، فتجد أحدهم خائفًا من المستقبل، مِن فِعل كذا، ومن قلة المال والطعام، ويتناسى تمامًا أن كل تلك الأمور هي بيد الله، فوقتها يسقط عبدًا لمخاوفه والشيطان الذي يتلذذ في تعذيبه كما رأيت أنتَ في الأبواب الثلاثة كُل مخاوفك، زواج هيلانة، وقتل العبيد

وقتل الرعاة لكَ، فاترك كل المخاوف يا فتى لأن الحياة كلها مُجرد سلسلة مِن أقدارٍ لخالقٍ قد قدر كُل شيءٍ.

ثم كان الباب الرابع؛ وكان تجسدًا للذة المُحرمة، فالشيطان دائمًا ما يحثك على استشعار اللذة في طُرق الحرام، فيحثك على الزنا، وعلى تعاطي الخمر، وقهر العِباد، والتجبر في الأرض، ثم وما إن تنتهي اللذة سريعًا حتَّى يأتي عقاب أفعالك، ويكون شديد الألم، ندم شديد، عقاب جسدي، أمراض، كربات وفضائح تحدث للعباد، ولكن الشيطان يُعاود الكَرَّة ويُذكرك باللذة، فتعود مِن جديد وتفعل نفس الفِعل، ثم يعود العقاب أكبر، وهكذا تظل حبيسًا في تلك الدائرة، لذة مؤقتة يعقبها ألمٍ طويل موجع، هكذا هو طريق الحرام.

ثم كان الباب الخامس؛ تلك المرآة التي تجسد مشاعر الإنسان من خوف وغضب وكراهية وحُب وحِقد، وكيف أن تلك المشاعر والإسراف فيها قادرًا على تدميرك، فالكراهية التي تزيد عن حدِها تحول حياة صاحبها لجحيم، كذلك الحِقد والغرور والحسد، حتَّى الحُب لو ذهب في طريقٍ خطأ فقد يدمر صاحبه، لهذا كان عليك ألا تُسرف في إخراج مشاعرك، فللحزن وقتٌ لا يجب أن تتمادى فيه، وكذلك الفرح، أما عن الكراهية والحِقد فهما يُدمران ولا يبنيان أبدًا، وستجعلانك تحيا في دائرة من العذاب حتَّى تموت.

ثم كان الباب السادس؛ حينما أراد الشيطانُ أن يوهمك أنه قادرٌ على تعذيبك، وأنه يملك من أمورك الكثير، ولكنه فشل فشلًا ذريعًا، لأن كيده دائمًا ضعيفٌ، فناره باردة، ووسواسه ضعيف، ومكائده لا حُجج فيها، لهذا انتصرت عليه سريعًا، فكلما اقتنعت أن الشيطان أضعف منك، كلما انتصرت عليه ولم يستطع أن يقترب منك بقولٍ أو فعل.

أما الباب السابع ففيه قد نفدت حِيل الشيطان كُلها، فلم يجد شيئًا يُخيفك به، وهذا كل ما كان يستطيع أن يفعله الشيطان بك، كان يسمع كلام الغريب فتتسع عيناه في ذهولٍ تام، يعي أشياءً ما كان يظن أنه سيسمعها يومًا من الأيام، إذا كان كل هذا وهمًا وسِحرًا فكذلك كان حديث الملك كله كذبًا، لم يأتِ الكون بسبب النار والماء، وأن كل تلك الحكاية مختلقة مِن الملك، وللكون إله عظيم هو من خلقه بنفسه، بل وخلق الماء والنار والهواء والتراب.

نظر إلى العجوز وهو لازال يشعر بالسكينة جراء هذا المكان وقال:

▪ وماذا عن جهنم، وما رأيت هُناك؟!

وقتها فقط ارتجف صوت العجوز وقال:

▫ جهنم هي الحقيقة المُطلقة التي لا تحتمل سِحرًا أو كذبًا، هي عذاب الإله العظيم للعُصاة والكافرين، وما رأيته أنت كان بسبب دعوتي لكَ أن يريك الله الحقائق أمام

عينيكَ، فرأيت شيءٍ يُشبه الرؤيا، مشاهد مُصغرة لا تصف أهوال يوم القيامة، وكل ما رأيته لا يصف شعور رؤية النار حقًا يوم الحِساب، فكل ما رأيته مجرد نموذجٍ صغيرٍ جدا للحساب والنار والعذاب، رأيت أبوابًا سبعة للشيطان كلها أوهام، ولكنك رأيت أبوابًا سبعة لجهنم كلهم نيرانُ وجحيمٌ واحتراق وعذاب.

فشتان بين أبواب الشيطان السبعة وأبواب جهنم السبعة، شتان بين سحر الهاجس وإله النار المزعوم وجبل النار، وبين نار جهنم الحارقة المُلتهبة، فنيران الجبل مزحة بجوار نيران جهنم، فاعصِ نار الجبل لتتقي نار جهنم يا فتى، واعصِ الدنيا بما فيها وشهواتها لتتقي نار جهنم وعذابها، فوالله لن تحتملها أبدًا، وقتها انفطر قلبه من حديث الرجل أكثر، وقال في أسف:

▪ لقد جددت عهدي بنار الشيطان بالفعل.

◘ لهذا لم أُخبرك بأنك ستذهب في رحلة إلى نار جهنم وتركتك تخوضها لتكتشفها بنفسك، لأني لو أخبرتك ما كنت ستوافق وسترضى بنار الشيطان المزعومة.

▪ ولكن لي عِندك سؤالين.

◘ وما هما؟

▪ مَن أنتَ حقًا؟!

◘ أنا عبد من عِباد الله، أحارب الهاجس، والشيطان، والطُغاة من خلال دعم الصالحين، هكذا أراد الله لي هذا

▪ حسنًا، السؤال الثاني، ما الذي يستفيده الله من عذاب هؤلاء الضُعفاء بتلك النار العظيمة، بل ولماذا اختار النار لعذابهم.

▫ الله لن يستفيد من عذابهم شيئًا أبدًا، ولكن ألم تلاحظ أنهم كانوا يتضرعون ويتوسلون ولم يجرؤ أحدٌ أن يلوم الله أو يعترض على عذابه الشديد مع أن ذلك لن يخسره شيئًا، فهو في الأصل في الجحيم، هذا لأنهم يعرفون جيدًا أنهم يستحقون مكانتهم تلك، وأنهم فعلوا من الأفعال العظيمة ما جعلت مثواهم إلى النار، فهؤلاء إن خرجوا لفسدوا في الأرض من جديد، ولو تواجدوا في أي مكانٍ لدمروه بنفوسهم وشرورهم، فما لهم مكان أبدًا، سوى النار، تلك النفوس اختارت هذا ولن يأويها مكانٌ سوى الجحيم، ولن يفلح معها أي مكان مهما كان سوى النار، ولو دخلوا الجنة لأفسدوها بنفوسهم، لهذا هم يعرفون هذا، ويعرفون أنهم من اختاروا هذا الطريق، ويعرفون أن نفوسهم لا مكان تستقر فيه سوى النار، فنفوسهم خبيثة، لو عاشت في خلود لأفسدت، لهذا عذابهم هو الخلود أيضًا.

أما سؤالك عن لماذا اختار الله النار للعذاب بالأخص فيجب أن تعلم أنها مُجرد سبب للعذاب فقط، فالله كان قادرًا على جعلهم يتعذبون عذابًا أشد ألمًا في الماء، أو في التراب أو حتَّى يتعذبون وهم جالسون في الهواء، فالعذاب شديد وواحد حتَّى ولو تعددت الأسباب، فالله قد كتب عليهم العذاب الأليم، فلا يهم أكانت نارًا أم ماءً، فالله يقدر أن يجعلك تصرخ من شِدة الألم وأنت مكانك لم تتحرك، كذلك

قادرٌ على إحراقك في ناره لتتعذب، فهي حكمة الخالق، الرحمن الرحيم والذي بدورهِ شديد العِقاب أيضًا.

وقتها تراجع جسد العجوز، واقشعر بدنه من مغادرة العجوز له، ثم تغير المشهد في لحظةٍ ووجد نفسه يصرخ وهو يهوي في نار جهنم، ويهوي، ويهوي، ثم ارتطم بشيءٍ مُخيفٍ، وكانت النهاية.

****

كان كمن ارتج كيانه كله بداخل بركانٍ يثور ثورة عظيمة حينما استيقظ من نومه، كان غارقًا في بحرٍ من العرق وكأنه قد أسقط من جبينه سيولًا منه، وكان قلبه ينتفض بداخل صدره كأنه يأبى أن يظل حبيسًا في هذا الجسد الذي يرى كل تلك الأهوال التي لا حِمل له ولا طاقةً في استيعابها، جلده كله قد انكمش على بعضه وكأنه قد حُبس في المياه لأيامٍ طوال.

ظل ينظر من حوله وقد اتسعت عيناهُ بطريقة مُفزعة، رئتاه تكادان أن تنفجرا من شدة الشهيق والزفير، كان في مكانٍ صغير يُشبه الغرفة وهو ممددًا على فراشٍ متوسط الحجم، في تلك اللحظة دلف إلى الغرفة رجلٌ من المُسالمين، كان متبسمًا وقور الملامح وقد غزا الشيب لحيته وشعره الطويل، ما إن رأى ملامح أرجوان الفزعة تلك حتى تغيرت نظرته وقد شعر بالقلق حيال هذا، اقترب في هدوء وقال:

✦ حمدًا لله أن عُدت إلينا يا فتى.

وقتها ابتلع أرجوان ريقه وتحركت عيناه في عشوائية شديدة ونازع كي يتحدث بتلك الكلمات وقال:

▪ هل أنا ميت؟؟

✦ لا يا ولدي، أنتَ لا تزال حيًا تُرزق.

تطلع إليه بذهولٍ لثوانٍ طويلة ثم انهار في نوبة هيستيرية من البكاء الشديد، لدرجة أن الرجل وضع يده على كتفيه ثم احتضنه في قوةٍ وكأنه يعانق ابنه الذي غاب عنه لسنواتٍ طوال، ظل يرتجف وتسيل دموعه بين أحضان الرجل حتى هدأ تمامًا، وصار بكاؤه عبارة عن دموعٍ تنزل منه على استحياءٍ تامٍ، وقتها أحضر له الرجل بعض الماء البارد والكثير من الطعام، ولكنه لم يأكل مِنه شيئًا، وإن تجرع من الماء جرعاتٍ هائلة كأنه لم يشرب منذ ولادته، وبعد مرور الكثير من الوقت بدأ يعي أنه لا يزال في الدنيا وأنه يجب أن يعرف مكانه، نظر إلى الرجل بعد أن تحسنت حالته وقال:

▪ أين أنا؟!

✦ أنتَ في أرضِ المسالمين يا ولدي.

وتبدلت نبرته إلى نبرةِ حزنٍ جم وقال:

✦ أو قُل ما تبقى مِن المُسالمين.

▪ أنتم مَن تُعادون المَلك إذًا؟

✦ نحن لا نعاديه لأمرٍ شخصي يا ولدي، وإنما نُعاديه لأنه يُضل العِباد عن عبادة الله.

وقتها فقط توقف نبضه واشتعلت عينيه بالبريقِ الساطعِ، تساءل في ذهولٍ وقال:

▪ أتعبدون الله أيها الرجل؟!

✦ نعم يا فتى، الله خالق السماوات والأرض، رب الملك ورب السماوات.

▪ ورب جهنم.

قالها سريعًا ليتعجب الرجل ويقول:

✦ مَن حكى لكَ عن جهنم يا ولدي؟!

▪ للأسف لقد أراد الله أن أرى وأسمع ما لم يرهُ أو يسمعه أحدٌ مِن قبل.

✦ وهل ستؤمن بالله كما فعَل أبوك؟

وقتها ارتجف جسده كله على ذِكر لفظ أبيه وقال:

▪ أتعرفُ أبي؟!

✦ نعم يا ولدي، أبوك أول مَن دمرَ أسطورة الرعاة، ومِن أوائل من آمنوا بالله في هذا الوادي، ولكن الفتنة عَصفت بهِ بعد أن انفطرت قلوبُنا لأجله.

▪ قُص عليَّ رجاءً كل ما تعرفه عن أبي، أيها الرجل.

✦ لكَ ذلك يا ولدي.

كان أبوكَ جليسًا من جلساء الملك، يستشيره في أموره ويطلب منه الرأي والمشورة دائمًا، وكان أبوك "آرام" من المقربين من الملك بسبب حِكمته البالغة في إدارة شؤون الحُكم معه، وسار الأمر طويلًا والعلاقة بينه وبين الملك تزداد قوةً وصلابة.

حتى جاء يوم المسيرة، مسيرة المحظوظات، وسار الملك في موكبه ليختار الحسناوات من أهل الوادي لتكنَّ من زوجاته وحورياته، يأخذ منهن ما يشاء، وكان للملك الحق في اختيار أي امرأة مهما كانت، حتَّى لو كانت متزوجة، وكان من سوء القدر أن خرجت أمك يومها، وبالصدفة لمحها الملك، كانت جميلة تستلذ لرؤيتها الأبصار، لهذا أشار ناحيتها الملك وهو لا يعرف أنها زوجة جليسه آرام، وقتها ثار أبوكَ ثورة رهيبة.

لدرجة أنه قد قتل اثنين من الجنود وهرب بها أمام مرأى الملك والجنود، وقتها ثار سديم ثورةً رهيبة، وكاد أن يشتعل من الغضب، وعلِمنا نحنُ أن أباك قد خرج عن حُكم المَلك، واستطعنا الوصول إليه، وعرضنا عليه الإيمان بالله خالق السماوات والأرض، فتقبل أبوك ما دعوناه لأجله وآمن بالله العظيم.

وبدأ يخرج معنا في صولاتٍ على جنود هذا الملك الظالم، بل وكان بارعًا في اصطياد هؤلاء الجنود بحِنكةٍ وبراعة يُحسد عليها، وكانت الأمور تسير على ما يُرام حتَّى جاء يوم خروج الرعاة من الجبل ليأخذوا قربانًا من أهل الوادي، وقتها كان أبوك مُصرًا على التصدي لهم، بل وقرر أن يخرجُ في صولةٍ وحده ليُحارب رعاة الإله، كان يُريد أن يقتل أحد الرعاة ليثبت أن الرعاة ليسوا خارقون كما يظن الناس، حاولنا إقناعه بأن ينتظر لأنه بذلك يُلقي بنفسه إلى الهلاك، ولكنه كان مُصرًا على

ذلك، وبالفعل خرج وعاد إلينا وقد قتل بالفعل أحد الرعاة، وأثبت لكل المُسالمين أن الرعاة يُقتلون كما يُقتل الناس.

وقتها وصل خبر مقتل أحد الرعاة للملك، وعلِم أن أباك مَن فعل هذا لأن بعض الرعاة رأوه، وأصبح كل شغل الملك الشاغل هو القبض على أبيكَ، وكانت الفاجعة حينما استطاع الملك الوصول إلى مخابئنا وأخذ أمك كرهينة، عندها ثار أبوكَ وخرج فورًا إلى قصر الملك كي يستردها، والغريب أن الملك لم يقتله أو يُعاقبه، بل اعتذر منه وطلب منه أن يرد له امرأته مقابل أن يعود لخدمته في القصر حيث الجواري والنعيم، وقَبِل أبوكَ الأمر، وعَلِمنا فيما بعد أنه لم ينضم لنا ويؤمن بالله إلا لينتقم من الملك لشخصه فقط، وأنه لا يهتم بدعوتنا مِن الأساس.

أرسلنا له الكثير من الرسائل السرية بعدها كي يعود إلينا مع زوجته، ولكنه رفض، كانت قد افتتن بما عِند الملك، الملك الذي كان يطبخ قتلة أبيكَ على نارٍ هادئة، وبالفعل علِمنا أن أباكَ قد ذهب ليُجدد العهد مع النار في الكهف، وأنه قد شرِب من سحر الملك؛ قارورة صغيرة بها سحرٌ خبيث يذهب بالعقول ويُخيل للمرء الكثير من الأمور الرهيبة.

افتتن أبوك بالحوريات وضاجع إحداهن، وجدد عهده بالنار، وعاد إلى الملك أشد كُفرًا من ذي قبل، وقتها فقط كان مهيئًا لأن يسحره الملك السِحر الأكبر؛ أن يشرب

من القارورة السوداء، وهذا السحر يجعل الشخص يفقد عقله تمامًا ويُصبح عبدًا للملك إلى الأبد، شرِب أبوك مِن هذا السِحر، وفي ليلة خروج الرعاة حكم الملك على أبيكَ بالموت في فوهة البركان، وبسببِ السحر الذي أذهبَ بعقلِ أبيك، قرر أن يذهبَ بنفسه ليُنفذ الحُكم في نفسه.

حاولنا ليلتها أن ننقذه ولكن الملك كان قد أحكم قبضته على الوادي في تلك الليلة، وعلِمنا أن أباكَ قد احترق في فوهة الجحيم، وفي اليوم التالي وصلتنا الأخبار أن الملك قد أخرج بيانًا يُنعي فيه جليسه آرام الذي قتله المُسالمون غدرًا وعدوانًا، ولكي يظهر في مظهر الرجل الصالح بنى بيتًا لزوجة آرام وأسكنها إياه، كي لا يظن الناس أن الملك هو من قتله ليأخذ زوجته منه، وبعدها علِمنا أنك أصبحت من أبناء الملك ولا نعرف لماذا اختارك أنتَ، رُبما لأمرٍ شخصي لا نعرفه نحن.

****

كان أرجوان وقتها ينتفض، عيناه متسعة، وجسده يرتجف بطريقة مُخيف، حدثه الرجل سريعًا وقال:

✦ ما بك يا فتى؟

▪ أنا أعرف، أنا أعرف.

✦ تعرف ماذا؟!

▪ أعرفُ لما قرر الملك أن يتخذني ابنًا.

✦ أخبرني رجاءً يا ولدي.

لقد تذكرتُ الآن، لقد كُنتُ صغيرًا، وفي تلك الليلة خرج أبي من البيت وهو يُجبرني بألا أخرج مهما حدث، ولكني خرجتُ من خلفه، وراقبته، رأيت اثنين من الجنود يقودونه إلى الجبل، حيث الصرخات الرهيبة التي كانت تُصيبني بالرعب، ولكني اختبأت من الحراس وتتبعت أبي إلى قمة الجبل، حيث فوهة النار، ورأيته مِن الخلف يقترب منها، كنت أعي أن هُناك أمرًا كارثيًا سيحدث لأبي، ولكني ما كُنت قادرًا حتى أن أناديه ولو بكلمة.

كان من أمامي يقترب من الفوهة، ويقترب، ويقترب، ثم، ثم رأيته ينظُر لشيءٍ بالأعلى، نعم نعم أتذكر، لقد كان ينظر إلى شيئًا يُشبه البوق الضخم، كان مثبتًا من أمام الفتحات الصغيرة في أعلى الكهف، وما إن رآه حتى تغيرت ملامح وجهه

وكاد أن يهرب من المكان، ولكنه ما إن التفت حَّتى وجد أحدهم يقف من خلفه، وقبل أن يأخذ أي خطوة دفعه هذا الشخص بقوة، وسقط أبي أمام عيني في فوهة البركان وابتلعته الحمم في نهم.

هكذا ردد بين ثنايا عقله والتفت ليركض ناحية الخارج، ولكنه ما ان التفت حتى رآه يقف من خلفه، وقبل أن يتبين ملامحه دفعه هذا الشيء بكل قوته ناحية الفوهة، وهوى جسده ناحية الحمم وهو يصرخ بكلمة:

"باااطل"

وابتلعته الحمم واذابت لحمه وعظامه في ثوانٍ معدودة لتنبض بعدها عِدة نبضات ثم تهدأ تمامًا بعد أن التهمت وجبتها، وهُنا التفت هذا الشيء إلى الخارج وسار بكل هدوء حتى خرج من المكان كله، ومن خلفه عادت الصيحة المخيفة تصرخ بصوتٍ جبار.

وقتها صرختُ، صرخت بأعلى صوتٍ وأنا أرى أبي يسقطُ في الفوهة، ونظر لي هذا الشخص بعدما أوشكَ على الخروج من المكان، لقد كان هو، الملك سديم، لم استطع الهرب منه من فرط الرعب وقيدني بعنفٍ، رأيت نظرات عينيه المُخيفة، وسمعت كلماته المرعبة حينما قال:

◈ فلتلحق بأبيك يا صغير.

وقذف بي ناحية الفوهة، واتسعت عيني فزعًا وأنا أرى الحمم تنبض بحرارةٍ هائلة ويقترب منها جسدي بسرعةٍ بالغة، ولكني استطعت أن أتمسك بحافةٍ حجرية تعلو مترات قليلة فوق الحمم، وقتها رآني الملك وتعجب من إصراري على الحياة.

سمعت صوته من الأعلى مُشجعًا يقول:

◈ يبدو أنك لا تستسلم بسهولة أيها الصغير، والآن لنرَ، هل ستقدر على الخروج من هذا المأزق أم لا؟

وقتها كانت عيناي تنتفض ورأسي مقلوب للأسفل ناحية الحمم، تعرق جبيني، وارتجفت يداي، وكدت أن أسقط مرات، ولكني تمسَّكت بالحواف الملتهبة حتَّى التهبت يداي واستطعت الخروج، وقتها صفق سديم بيديه فرِحًا، وقرر أن يأخذني عِنده للقصر، أتذكر كلماته حينما قال:

◈ لقد أثرت إعجابي، يبدو أنك قويًا مِثل أبيك، ولعلك تكون فارسًا من فرساني، ولكن لنضمن أنك لن تخرج عن طوعي أبدًا، وستشرب من مشروب النسيان، لن تتذكر سوى أن أباكَ قد مات على يد المُسالمين، وستعوضني عن فقد أبيك الذي كان خيرٌ مُعين لي، وإن عصيتني يومًا وتذكرت أو كنت سببًا في تهديد عرشي فسأقتلك في نفس المكان الذي قتلتُ فيه أباك.

وشربت من القارورة، فنسيت كل شيءٍ طوال تلك السنين، ولكن لازمني الخوف من النيران طوال تلك المُدة بسبب ذلك الحادث المُخيف، فأصبحتُ أخشى النار دائمًا، وها أنا قد علمت الآن سبب هذا الخوف.

وقتها ردد الرجل في ذهول وقال:

✦ البوق.

تحدث أرجوان سريعًا وقال:

▪ أتعرف شيئًا لم تُخبرني به؟!

✦ نعم يا بني، حينما أقام أبيكَ معنا، قال لنا أنه يصنع بوقًا ضخمًا كل شهرٍ للملك، ولا يعرف سبب صُنعه أبدًا، ولكني الآن علمت، البوق يُوضع كل شهرٍ لتمر من خلاله الحمم النارية فيصدر ذاك الصوت الهائل، ليُوهم الناس أن هذا هو صوت إله النار، فيظل الناس في خضوعهم وخوفهم.

تحدث أرجوان مبهورًا وقال:

▪ أتعني أن...

✦ نعم أعني أنه لا وجود لإله النار من الأساس، وأن هذا كله من تدبير سديم وبعض الشياطين اللعينة.

وهنا وصلت عربة ضخمة تجرها الأحصنة إلى القصر، فتابعتها هيلانة بترقبٍ لتدلف إلى الساحة ويضع الحراس بداخلها شيئًا مغطى بغطاءٍ أسود فلم يظهر مِنه شيئًا ثم رحلت العربة سريعًا، هكذا ما يحدث في كل ليلةٍ مشؤومة، تأتي نفس العربة لتأخُذ شيئا مُغطى بغطاءٍ فلا تعرف ماهيته، ثم ترحل سريعًا، ولطالما سألت أباها، ولكنها كانت تجد نظرات الغضب التي جعلتها تتوقف تمامًا عن السؤال، وإن ظل الفضول ينهشها نهشًا كما تنهش الضباع لحوم الجيف.

****

وقتها عمَّ الصمت المكان كله وكلٍ منهم يبحر في محيطٌ ثائر من الأفكار المتلاطمة، سديم قد خدع الجميع بلا استثناء، خدعهم ليس بسحره فقط، ولكنه أيضًا خدعهم بأفكاره الشيطانية، هذا يعني أن كل ما يحدث مجرد خُدعة كبيرة، خُدعة لم يكتشفوها سوى الآن.

وقتها نهض أرجوان سريعًا وقال:

- يجب أن أقابل سديم.

قبض الرجل عليه بقوة وقال:

✦ لا يا بُني قد يفتنك مثلما فعلَ مع أبيك، ويقتلك.

▪ ولكني لستُ كأبي، لقد رأيتُ ما لم يرهُ أبي وأنا نائمٌ هنا، وأعي الآن ما لم يعرفه أبي.

✦ ولكن لماذا ستذهب إليه؟

▪ سأنتقم ممن قتلوا أمي.

✦ ولكن يا بني...

▪ للأسف الانتقام شيءٍ متوارث في دمائنا، لقد انتقم أبي لأمي لأن الملك فقط أرادها لنفسه فقتل جنوده وأذاقه الويلات، ورغم أنها لم تُخبرني بشيءٍ من هذا طوال حياتي، وكأنها كانت تخشى عليَّ من المعرفة، إلا أنني سأثأر لها، وكما ثأر لها أبي سابقًا فسأفعلها أنا الآن.

✦ ولكن أخبرني ماذا ستفعل؟

▪ سأقتل أحد الرعاة ليلة خروج الإله المزعوم، وليلة صيحة البوق.

✦ حسنًا يا فتى لن أمنعك، ولكن لتسمع فقط ما سأُخبرك بهِ

واتسعت عيني أرجوان في إثارة هائلة حينما سمع كلمات الرجل..

****

كان على العرش جالسًا يكاد يذوب من فرطِ التفكير، الأمور لا تسير في صالحه أبدًا، هؤلاء المُسالمون الذين أصبحوا كالشوكة الحادة في القدم، ينبغي أن يتخلص منهم في القريب العاجل، في تلك اللحظة، فُتح الباب واتسعت عينا الملك في تعجب، لقد كان أرجوان يقف من أمامه متبسمًا، تقدم نحو الملك سريعًا، ثم قبَّل يديه في هدوء، تعجب الملك أكثر وقال:

◈ أرجوان، ماذا حدث هُناك، لقد عاد إيوان وقال لي أنكَ قُتلت في معركةٍ مع المُسالمين.

▪ لم يستطيعوا يا أبي، فقد خرجت من الكهف بعد أن جددت العهد مع النار، وقابلت إيوان الذي أرسلته أنتَ لحمايتي، ولكن المسالمين هجموا علينا، وقد هرب إيوان، بينما وقفت أنا أقاتلهم بكل قوتي حتَّى تغلبت عليهم، ولكني ضللت طريقي بسبب وجود بعضهم في طريق العودة، وفي النهاية استطعت العودة وجئتُ إليك يا أبي.

وفي تلك اللحظة، دخل إيوان عليهم وشهق في خوفٍ حينما رأى أرجوان من أمامه، أرجوان الذي بادره بالعناق القوي وهو يقول:

▪ اشتقت إليكَ يا أخي كثيرًا.

ولأول مرة يشعر إيوان بالخوف الشديد، ولكنه لم يكن ليقدر أن يعترف لأبيه أنه حاول قتل أخيه، وتحدث الملك قائلًا:

◈ تهرب من المسالمين يا إيوان وتترك أخاكَ يحاربهم وحده!

أجابه إيوان خائفًا وقال:

□ كنت أظنه قد قُتل يا أبي، ولم يتبقَ معي أحدٌ من الجنود.

◈ حسنًا لا يهم، سننتقم عمَّا قريب، ولكن لننتهِ اليوم من مَسيرة المحظوظات لتنال ما وعدتك بهِ يا إيوان، ثم تمر ليلة الغد، ليلة الصرخة، ثم نتجهز لإبادة المُسالمين تمامًا.

وقتها ابتسم إيوان ابتسامة خبيثة وهو يتطلع في عيني أرجوان الذي شعر بالقلق الشديد.

وبعد ساعتين فقط كان الموكب السنوي المَهيب ينتظر الملك كي يمر على أهل الوادي ويأخذ ما يشتهي من نسائهم وفتياتهم، وتجهز أهل الوادي بنسائهم أمام البيوت يترقبن نزول الملك وسط موكبه المَهيب وجنوده الأقوياء.

وعلى الحصان الأبيض ركبت هيلانة ذات الحُسن والجمال الطاغي، وهذا كان بأمر الملك بأن ترافقه في المسيرة، حاول أرجوان أن يُلفت انتباهها ولكنها تجاهلته تمامًا،

حتَّى حينما وقعت عيناها عليه بالصُدفة أشاحت بوجهها بعيدًا، وهذا زاد القلق في قلب أرجوان أكثر.

وانطلقت المسيرة وسط الاحتفالات والصيحات من الجُنود، ونزل الموكب ليمر على البيوت ويتأمل الملك في نساءِ العامة، بل وبدأ يتحسس أجساد بعضهنَّ أمام أزواجهنَّ وذويهن الذين طأطأوا رؤوسهم في خضوعٍ تام، الأمر الذي لم يتقبله أرجوان أبدًا، واليوم وبعد كل ما علمه فقد أدرك أن كل هذا لا يجب أن يكون.

وبدأ الملك يختار بعض النِسوة الجميلات ليركبن في الموكب ويرافقنه إلى القصر، وقتها تذكر أرجوان حينما حاول الملك أن يأخذ أمه، وتذكر ما حُكي له، لقد وقف أبوه في وجه الملك، بل وقتل جنوده وهرب بها، انتظر أرجوان أن يفعل ذلك أحد الرجال الذين تُؤخذ نساؤهم أمامهم، ولكنه لم يجد منهم سوى الاستسلام والذُل المَهين.

وبعد الكثير من الوقت انتهت المسيرة وتجمع أهل الوادي حول الملك ليخطب فيهم خطبته الشهيرة كل عام، ليُظهر قوته من أمامهم وينفذ أحكام الإعدام بنفسه، وبالفعل أمسك سيفه وساق إليه الجنود ثلاثة من الرجال وثلاثًا من النساء، وخرج القاضي ليحكم في أمرهم، حيث إنهم قد سرقوا وعصوا بعض أوامر الملك وقوانينه في الوادي.

ورفع الملك سيفه وقطع رقابهم في قسوة بالغة، حتَّى إن هيلانة وبعض الناس قد غطّوا وجوههم كي لا يروا تلك الأحكام الرهيبة، ثم تحدث الملك بصوته الجهوري وقال:

◈ غدًا نترقب صيحة الإله ونزول الرعاة لأخذ القُربان، وبعد الغد أُعلن تزويج هيلانة لإيوان في حفلٍ كبير سأقيمه في قصري الكبير.

وهوى قلب أرجوان من مكانه وكاد أن يسقط من هول الخبر، نظر ناحية هيلانة في ذهول فرأى الدمع يسقط من عينيها في صمتٍ، فأدرك أنها مُجبرة على هذا، نظر تجاه إيوان فرأى نظرات التحدي والشماتة تملأ وجهه، وقتها فقط تغيرت ملامح أرجوان من الذهول والحُزن إلى القوة وتبادل مع إيوان نظرات التحدي، فمن يدري هل سيمر الغد في سلام هكذا أم أن كل شيءٍ سيتغير، الله وحده من يعلم هذا.

****

كل ما عليك يا ولدي أن تشهد بوحدانية الخالق العظيم، ثم تستعن به وتنطلق، فنحن على يقين أن النصر سيكون حليفنا نحنُ أيها الفتى.

****

في اليوم التالي كان أرجوان مشتعلًا بالغضب والحماسة، يُفكر ألف مرة فيما سيفعله، وهل ستتم الأمور كما خطط لها أم لا، راجع الأمر في ذهنه مرات ومرات ثم خرج إلى ساحة القصر، وفي الشُرفة رأى هيلانة تقف تراقب شروق الشمس، وقتها أدرك أنها لم تذق طعم النوم، نظر إليها في إشفاق وتمنى لو أخبرها أنه سيُحارب العالم لأجلها ولكنه لم يستطع، نظرت إليه في حزنٍ تام ثم عادت إلى الداخل في صمت.

وبعد دقائقٍ فقط جاءه أحد الحراس وطلب منه الحضور لمُلاقاة الملك، تمالك نفسه ودخل الساحة على الملك الجالس على عرشِه، فابتسم الملك فور رؤيته وقال:

◈ هناك أمور تخبئها بداخلك يا فتاي الصغير ولم تُخبرني بها.

اضطرب أرجوان كثيرًا وقال:

■ وما هي تلك الأمور يا أبي؟!

◈ العاشق تفضحه نظراته، ويبدو أنكَ كُنت تُريد هيلانة لنفسك يا فتى.

تلعثم أرجوان ولم يستطيع الإجابة، ليتابع الملك قائلًا:

◈ دائمًا ما كُنت تعصاني يا فتاي، ولم أرضَ عنكَ سوى حينما علمت أنك جددت العهد بالنار، والآن يجب أن تثبت ولاءك لي وتفعل ما آمرك به إذا أردت ألا أغضب عليك، وأعدك أن أزوجك الفتاة التي ستختارها بنفسك.

▪ وماذا تريد يا أبي؟

قام الملكُ من مكانه وهبطَ مِن على عرشه وفي عينيه نظرات الشر الخالص، أخرج قارورة سوداء من جيبه وقال:

◈ تشرب من هذه.

وانتفض أرجوان انتفاضة رهيبة، وهو يتذكر تلك القارورة التي شرِب منها أبيه، ليفقد اتزانه تمامًا ويُطيع الملك طاعةً عمياء، لقد شرِب من القارورة الأولى، وجعلته يرى الجحيم بسبب السِحر في الكهف، وها هو قد جدد العهد مع النار، ويبدو أن بعد هذا يأتي دور القارورة السوداء، وقتها يُصبح عبدًا بين يدي الملك، وقد يُلقي بنفسه في الفوهة بدون وعيٍ كما فعل أبوه، هذا ما حدث مع أبيه وربما يحدث معه كذلك، وكان يجب أن يرفض، وأن يؤجل هذا الأمر ولو ليومٍ واحد، فقط الليلة، تمالك نفسه وقال:

▪ ألا يمكننا أن نؤجل هذا حتى تنتهي ليلة الصيحة يا أبي؟

هز الملك رأسه يمنة ويسرة وفي عينيه نفس النظرة المُخيفة وقال:

◈ بل الآن أيها الفتى، وإن لم تفعلها فصدقني ستكون نهايتك.

ولكنه لم يكن يقدِر على فعلها، لهذا رفض، وما إن رفض حتى استشاط وجه الملك بالغضب الكبير وصاح مناديًا على جنوده الذين طوقوا أرجوان سريعًا، ومن وسطهم خرج إيوان متبسمًا، وفي لهجةٍ حادة قال:

◈ تعرف شرطي لتتزوج هيلانة يا إيوان، الليلة يكون أرجوان في عداد الموتى وفي نفس الفوهة التي قتلت فيها أباه من قبل، كما وعدته سابقًا إن حدث وكان سببًا في تهديد عرشي.

ثم نظر لأرجوان وقال:

◈ هل تذكر يا فتى يوم أن قتلتُ أباك، ذاك اليوم الذي جعلك تخشى النار حتى يومنا هذا، كنت أعرف أنني سأحكي لك هذا يومًا ما.

صرخ فيه أرجوان قائلًا:

▪ وفر حديثك أيها الملك، فأنا أعرف كل شيء.

ظهرت ملامح التعجب على وجه الملك وقال:

◈ يبدو أن قراري كان حكيمًا، فقد رأيت فيكَ أنك تُخطط لأمرٍ ما، وقد علمت بطريقتي أنك لن تصلح للحياة معي بعد اليوم، نفِذ فيه القتل الليلة يا إيوان.

وساقه الجنود إلى الزنزانة حتى يحل الليل وينفذوا فيه الحُكم البغيض، سيقتلونه في الفوهة، سيذوب لحمه ويُصبح وجبة للنار، وأدرك أرجوان أن كل شيءٍ باء بالفشل من قبل حتى أن يبدأ.

****

أحيانًا ما تُغلق الحياة كل أبوابها في وجوهنا حتَّى نظن أننا سنبقى في هذا الجحيم إلى الأبد، ولكن دائمًا ما تُفتَّح أبوابًا خفية لا يُدرك وجودها سوى خالقها، وهي مرتبطة دائمًا بوجود الإله، وطالما أن الإله لا يفنى فتلك الأبواب لا تفنى ولا تُعد ولا تُحصى، وهو كان يسير في الزنزانة كالليث الثائر، يرى كل الأمور وقد تلونت باللون الضبابي الثقيل، وكأن بئر الماء حين الوصول إليه أصبح سرابًا.

وقتها احتار في أمره كثيرًا، إذا كان قد كُتب له أن يكون في عداد الهالكين، فلِمَ خاض تلك الرحلة بكيانه ورأى ما لم يرهُ أحدٌ من ذويه، لماذا أراد الإله أن يرى كل تلك الأمور ما دام أنه سيموت بتلك الطريقة، وساوره الشك كثيرًا، حاشا أن يخلق هذا الخالق العظيم شيئًا عبثًا، الإله القادر على مُحاسبة كل تلك الخلائق هو حتمًا يسير كل شيءٍ في مُلكه كالميزان، لا يحدث موقفًا ولا تخرج كلمةٌ هباءً، هذا العالم يسير بحساباتٍ دقيقة.

وتلك الحسابات جعلته يرى ويعي أن هذا الملك ما هو إلا طاغية يجب أن يُهدم عرشه في القريب العاجل، وبما أنه قد رأى وسمِع فحتمًا ستكون نهاية هذا الملك على يده هو، وقتها اطمأن قلبه قليلًا، واستطاع أن يجلس على أرض الزنزانة مناجيًا ربه.

▪ يا أيها الخالق العظيم، يا من خلقت الدنيا بملوكها وكنوزها وخيراتها، ويا من خلقت النار بعظمتها وبشاعتها، حتمًا أنتَ قادرٌ على كل شيءٍ، وبيدك كل شيٍ، رأيتك ترحم عِبادك رغمًا عن جهنم، ورأيتها تنزوي أسفل قدميك مرتعبة، بل ورأيتك تقسو عليها لأجل عِبادك العُصاة، وإني اسألك أن تجعلني من عِبادك هؤلاء، وإني أشهد أنك أنتَ الله، مالك كل شيء، ولا معبود سواك، أنت أقوى من كل شيءٍ، وأنتَ أرحم الراحمين.

ثم انهار باكيًا حينما استشعر الله في قلبه في تلك اللحظات، وأدرك أنه يسير على الخُطى الصحيحة، ويجب ألا يقنط من رحمة الله أبدًا، وظل لساعاتٍ يناجي الله كي يُنجيه من هذا المكان، كي يخرُج من الزنزانة حيًا يُرزق، فلم يعد الانتقام لأمه فقط من يُحركه، ولكن الغيرة على هذا الإله العظيم، والرغبة في الانتقام ممن ينازع الله في مُلكه.

ولكن الوقت طال، واقترب الليل ولم يحدُث شيئًا، حتّى أنه ومن بعيد وصلته أصوات الحُراس ومعهم إيوان، إنهم قادمون لقتله حتمًا، أهذه هي إرادة الله، حسنًا فهو سيرضى بها مهما كان.

وترقب ظهور إيوان بعد لحظاتٍ، ولكنه ذُهل حينما رأى هيلانة تلهث من فرط الخوف والتوتر، وهي تفتح الزنزانة وتكاد أن تفقد اتزانها، وفي لحظاتٍ كان باب الزنزانة مفتوحًا، هتف بها غيرُ مُصدقٍ:

▪ هيلانة، لما فعلتِ هذا؟!

أمسكته من معصمه وهرولت مبتعدة عن المكان في اللحظة التي ظهر فيها إيوان وجنوده في أول الممر، اختبأ معها في ظلمات الزنزانة الأخيرة، وكتما أنفاسهما ليسمعا صوت إيوان الثائر وهو يقول غاضبًا:

□ لقد هرب أيها الملاعين، ابحثوا عنه في كل مكان سريعًا وإلا قتلتكم جميعًا.

وانطلق الجنود إلى الأعلى وتركوا المكان كله، نظر أرجوان إلى هيلانة وقال بدموعٍ تتقطر من عينيه:

▪ لما تضعين نفسك في موضِع الخطر لأجلي يا هيلانة؟!

◙ لقد علِمت أنهم سيقتلونك، والمرأة قد تُقدم حياتها فقط لأنها تُحب، وأنا أُحبك يا أرجوان.

وقتها فقط انتفض قلبه بقوةٍ حينما سمِع كلماتها، فأكملت قائلة:

◙ رغم أنني لا أعرف أما تفعله صحيحٌ أم لا، ولكني سأحارب لأكون لك أنتَ، وعِدني ألا تتركني يا أرجوان، عِدني.

تطلع في عينيها بكل قوةٍ وقال:

▪ أُعاهدك، وخالق جهنم يشهد علينا.

ثم غرق في عينيها طويلًا قبل أن ينطلق كالنمر الجريح ليُنفذ ما جاء لأجله، وفي تلك اللحظة فقط انطلقت صيحة الإله تشق الفراغ بكل جبروتها وقوتها، وانتفض كل أهل الوادي في بيوتهم يترقبون نزول الرعاة، أما هو فقد استطاع الخروج من القصر وانطلق ناحية الجبل، لعلها تكون ليلة الخلاص.

الليلة التي تُفاجئ الظالمين دائمًا، ووصل إلى الجبل، ومن فوقه رأى شرر النيران يتفجر في الفراغ في مشهدٍ رهيب، ولكن من رأى جهنم لن يخشى نيران الكون كله، بل ولن يهتز قلبه ولو مرةٍ واحدة لمرآها، وفي الأفق صدحت أصوات رعاة الإله وهم يهرولون من فوق الجبل، أصواتهم كانت مزيج من زمجرة الكلاب وزئير الأسود، أجسادهم كانت مغطاة بجلود الأغنام ورؤوسهم كانت أقرب إلى رؤوس الثيران بأعينهم البيضاء تماما ولا يشوبها أدنى شيء.

تحفزت قبضته وتدفقت دماؤه في أوردته وأخذ يراقبهم في هدوءٍ تام وهو يحمِل حجرًا ضخمًا، وما إن سنحت له الفُرصة حتى هاجم أحدهم من الخلف وضربه

بكل قوته على رأسه فأسقطه أرضًا، ثم راح يهشم رأسه بالحجر بعنفٍ حتى انتفض الراعي مرات ثم فارق الحياة تمامًا، وقد تدفقت الدماء من رأسه كشلالٍ، أخذ سيفه وخنجره سريعًا ثم أكمل المسير تجاه الأعلى، تجاه هذا الكهف المثير لكل مشاعر الرعب والفزع.

كان وقتها يشعر بقوةٍ غريبة، جسده متحفزٍ وأعصابه تنبض بالغضب والقوة، تجري الدماء في جسده وتتدفق كتلك الحمم في قلب هذا الجبل، وقبل وصوله لحافة الجبل لمحه أحد الرعاة، وأشار ناحيته وأصدر زئيرًا مُخيفًا، وقتها أدرك أنه أصبح هدفًا لكل الرعاة، خاصة حينما رآهم يركضون من الأسفل تجاهه.

حاول الهرب والانطلاق بعيدًا ولكنه وصل إلى الحافة، الحافة التي أخبرته أن خطوة جديدة وستكون في تِعداد الأموات، وكان عليه أن يختار، الموت من فوق حافة الجبل، أو بخناجر الرعاة المُلتهبة، خياران لا ثالث لهما، لكنه قرر أن يكون هُناك خيارٌ ثالثٌ، مهما كان سينتزع هذا الخيار، سيستخدم الكلمة فقد جاء الأوان حتمًا.

****

حينما تضيق بك الأمور كُلها وتُصبح في مرمى السيوف والخناجر ردد بكل قوتك بتلك الكلمات:

"الله أكبر"

رددها بقوةٍ ويقين بأنه أكبر

أكبر من النار

وأكبر من العدو

وأكبر من السيوف

وأكبر من الذنوب

وأكبر من الكون كله

رددها وستجد فيها الشجاعة والقوة الجبارة

****

ووقف على الحافة ينظر إلى الرعاة الذين يهرولون تجاهه من الأسفل في تحدٍ عظيم، فقد آن الأوان ليختبر قوته الجديدة، قوته المستمدة من إله النار الحقيقية وليست تلك النار المُزيفة.

وبأعلى صوته وبصوتٍ هادر تردد صداه حول الجبل كله صاح بها:

- الله أكبر، الله أكبر.

وقتها توقف الزمن، وتوقف الرُعاة من شدِة وقع الكلمة على قلوبهم، بل وتوقف شرر النيران فوق الجبل، وحتَّى الصيحة اختبأت في باطن الجبل خشية تلك الصيحة الجديدة، أما هو فلم يتوقف عِنده الزمن، وانطلق كسيول النار تجاه الرعاة وهو شاهر سيفه ويردد تلك الكلمات المُحرقة والتي تبث في النفوس مشاعر الرهبة والخوف الرهيب.

وهبط عليهم كالصاعقة، كالموت المُفاجئ، واخترق سيفه صدر الراعي الأول ومزقه تمزيقًا، ثم انقض على الراعي الثاني وأطاح برأسه بضربةٍ واحدة، وشعر الرعاة بأن الأمر مختلفًا تلك المرة، إنهم يواجهون مَن يفوقهم قوةً، مَن يردد كلماتٍ تكادُ أن تهز الأرض هزًا، وكان ينبغي أن يتحدوا معًا وإلا ستكون نهايتهم على يد هذا الثائر المُلتهب بنيران الغضب، وعلى الفور تجمعوا من حوله وراحوا يضربونه بسيوفهم وخناجرهم وهو يصد ضرباتهم في بسالة وشجاعة يُحسد عليها، ولكن الكفة سريعًا راحت ترجح ناحية الكثرة، واخترق أحد الخناجر ذراع أرجوان الذي صاح صيحة رهيبة من شِدة الألم، الغريب أنهم كانوا يسوقونه بضرباتهم

ناحية الأعلى، ناحية الفوهة، حتَّى أنهم كانوا يطوقونه ويأخذونه بتكتيكٍ مدروس، وهو نفسه أدرك هذا حينما رأى ضرباتهم تضرب سيفه وخنجره لا جسده.

في النهاية سقط في المصيدة وأصبح جسده بداخل الكهف، ومِن أمامه كان الرعاة يتكاثرون ليزجوا به ناحية فوهة الجحيم، فقد هرب من السقوط مِن على الحافة ليسقط في قلب فوهة النار، ولكنه لم يكن ليستسلم سريعًا هكذا وقرر أن يستعين بالقوة الإلهية رغم ما به من جرحٍ غائر، وصاح بنفس الكلمات من جديد، وراح يُصارعهم صراع الأسود، وقبل أن يتمكنوا منه ترددت صيحاته مرات ومرات كأنها تتردد من كل مكانٍ في الجبل.

"الله أكبر"

"الله أكبر"

"الله أكبر"

"الله أكبر"

وقبل أن يعي أحدًا ما يحدث انقض فُرسان المُسالمين على الرُعاة وراحوا يقتلونهم شر قتلة مما أثار في نفسه الكثير من القوة وراح يقاوم بكل شراسة، كان يدفع السيوف عنه ويتراجع للداخل من قوتها وكثرتها، ولكنه وفي النهاية تشتت العدد بسبب حضور المُسالمين ولم يتبقَ سواه واثنان من الرعاة.

ضرب الأول منهم فقطع له ساقه، ثم قطع ذراعه وبعدها ركله في صدره فأسقطه في قلب فوهة النار، ولم يتبقَ سواه وراعٍ واحدٍ فقط، الراعي الذي صفق بيديه في إعجابًا مما أثار تعجب أرجوان، وعلى الفور نزع عنه قناع الثيران ليظهر من أسفله، إنه إيوان.

شهق أرجوان من فرط المفاجأة، ولكن إيوان لم يمهله وقتًا وقال:

□ لكم اشتهيت قتلك يا أخي، ولكم تمنيت لو أفعلها بيدي، ويبدو أن أمنيتي ستتحقق الآن.

وقتها ردد أرجوان في ذهول:

■ ولكن كيف؟!

□ تسأل عن القناع أليس كذلك، ليس هُناك برعاة للإله يا أخي، إننا جنود الملك مِمن جددوا عهدهم بالنار فنالوا شرف ارتداء هذا الرداء كل ليلة ليثيروا الفزع في قلوب الناس فيظلوا خاضعين لنا.

■ ولكن لِمَ لم يخبرني أبي بهذا؟!

□ لأنك لم تكن تُطيعه مثلي، كنت دائمًا تعصيه ومع ذلك كان يُحبك ويتحملك، أما أنا فقد ذقت الجحيم كي أجعله راضيًا عني، وفي النهاية قرر أن يعطيك الفرصة

تلو الفرصة، ومع ذلك تحملت ثم تحملت حتَّى جاءني الإذن بقتلك أخيرًا، ولسوء حظك فها أنت قد سقطت بين يدي من لا يرحَم.

وقتها تحفز أرجوان وقال:

▪ ومن لا يرحَم لا يُرحم.

ضحك إيوان ضحكة عالية وقال:

□ تظن أنك نجوت، الجبل الآن أصبح مُحاطًا بمئات الجنود بعدما وصل الخبر للملك، كلها دقائقٍ وتصبحوا جميعًا في تعداد الموتى، ولكني لن أنتظر، سأفعلها بنفسي.

في هذا الوقت سمع أرجوان أصوات أبواق الحرب من الأسفل وأدرك بالفعل أنه والمُسالمين قد أصبحوا بين فكي الموت، وقبل أن يتفوه بكلمةٍ واحد سمع إيوان يقول:

□ نسيت يومها أن أخبرك بالأمر حينما هاجمنا المُسالمين في الجزيرة، هل تذكر؟

▪ وما هو؟!

□ أنا الراعي الذي قتل أمك، أنا الذي مزَّق صدرها بخنجره المُلتهب، وأنا من أحرق بيتك، وكل هذا كان برعاية الملك سديم كي نجعلك معنا دائمًا.

هبطت الكلمة على أرجوان كالقاضية، حتَّى أن عينيه قد اشتعلتا باللهيب الغاضب، فانقض بكل عنف وثورةٍ على إيوان، إيوان الذي كان مُتحفزًا ومستعدًا لتلك المعركة أيما استعداد، استقبل نصل سيف أرجوان على سيفه وراح يضرب بكل قوته، غضبه وحقده الدفين زادوه قوةً على قوته، وتدريباته الشاقة جعلت ميزان النصر يرجح ناحيته، ولكن الغضب في نفس أرجوان كان أكبر.

والتحما في معركةٍ رهيبة وسط الكهف، من حولهم يتطاير الشرر وتتأجج الحمم في الحُفرة، وصوت سيوفهم يغطي على صيحات البوق المزعوم، حتى أمسك إيوان فجأة بحصوة ملتهبة وضرب بها وجه أرجوان، وقبل أن يستعيد اتزانه دفعه إيوان بكل قوته تجاه الحفرة..

وتكرر المشهد من جديد، بالأمس دفعه الملك وهو صغيرٌ، واليوم يدفعه إيوان في نفس المكان ويرى الحِمم أمام عينيه تتأجج، ولكنه استطاع، كما فعلها مُسبقًا، أن يتعلق بتلك الصخرة وألا يسقط في الجحيم، وأن يصرخ بكل قوته "الله أكبر".

وبكل رغبة مِنه في الانتقام والثأر، غرز أظافره في الصخر وقفز قفزة هائلة جعلته يخرج من قلب بخار الحمم وكأنه وحشٌ أسطوريٌ، حتَّى أن إيوان ذُهل مما رأى، وقتها فقط باغته أرجوان بضربة عنيفة بمقبض سيفه في وجهه، ثم ثانية، وثالثة، ثم دار حول نفسه وصاح صيحة هادرة وضربه بكل قوته ليُسقطه في قلب الحِمم.

وارتفعت صيحة إيوان الرهيبة لتبتلع الحمم جسده وتّذيب جسده وعِظامه في لحظاتٍ، وقف أرجوان ينظر إلى الحمم في الأسفل، وهو يلهث ويقول:

□ هكذا حَكَم خالق النار في أمرك يا أخي، وهكذا كان مثواك، لأنه ليس لك قرارٌ يليق بك سوى النارُ خالدًا فيها.

لحظتها اقتحم المُسالمون الكهف وهم يحتمون من ضربات الجنود الذين راحوا يصعدون إلى الجبل بإصرارٍ لقتلهم، وما هي إلا لحظات وانطلق أحد المُسالمين بتلك القارورة التي تحوي على التراب الفسفوري.

وأمام عيني أرجوان، رآه ينثر التراب فوق فوهة الحِمم وهو يردد:

✦ باسم رب النار وخالقها.

وما إن لامس التراب الحِمم، حتَّى ارتج الجبل كله بمن فيه، ارتج وكأنه لم يستقر يومًا على الأرض، واشتعل الرُعب في قلوب الجنود خارج الكهف حينما اهتز بهم الجبل كُله، وراحت الحِمم تدور كالدوامات في قلب الفوهة، ثم ارتج الجبل ارتجاجة أشد قوةً من سابقتها.

وانطلق أرجوان مع المُسالمين إلى خارج الكهف ليهربوا من الهول القادم، وحتَّى الجُنود راحوا يصرخون ويهرولون مُبتعدين، وقد تناسوا تمامًا وجود المُسالمين،

ومِن خلفهم ثار البركان ثورته الهائلة وراحت صخور الجبل تتشقق وتنهار بطريقة مُخيفة، ومن بينها تخرج الحمم لتركض من خلف الجنود والمُسالمين.

وارتج الجبل ارتجاجة أكبر وراح ينهار أمام مرأى أهل الوادي الذين خرجوا جميعًا وقد زاد الرُعب في قلوبهم أضعافًا مُضاعفة، وانطلق أرجوان مع المُسالمين عبر طريق النزول المُحدد في خطتهم من قبل، أما الجنود فتعثروا، وراحت الحِمم تحصدهم حصدًا، هرب بعضهم، وهلك بعضهم، وانهار الجبل في النهاية كله ولم يتبقى منه سوى بعض الصخور، بينما راحت الحمم تدور من حوله كالدوامة العملاقة التي تُحذر من الاقتراب منها،

ثم فجأةً انهارت الأرض وكشفت عن حفرة عملاقة راحت تبتلع الحِمم بنهمٍ رهيبٍ، وقتها فقط تجمع أهل الوادي حول الجبل، واقترب الجُنود، حتَّى المّسالمون وأرجوان، الكل قد ذهب عقله أمام هذا المشهد الرهيب، وقتها فقط صعد أرجوان فوق صخرةً كبيرة وراح يتحدث إلى الجميع:

▪ أيها الناس، لقد خدعكم الملك لسنواتٍ بوجود إله النار المزعوم هذا، وها أنتم وأمام أعينكم ترون انهيار هذا الإله المزعوم، قتل أولادكم، وأخذ منكم نساءكم وأموالكم، والحُجة دائمًا أنه يحميكم من غضب الإله، وها هو الإله يذهب بلا حول له ولا قوة، أما أنا فقد جئتُ لأخبركم بأن إلهكم في السماوات، أعظم من

الملك، وأعظم من النار، فاتبعوني ولا تعصوني حتَّى لا يُعذبكم الله الأكبر في نيرانه العظيمة.

ما إن انتهى منها حتىَّ تقدم كبير الجنود وانحنى أمام أرجوان، قائلًا بصوته الجهوري:

* أُعاهدك يا أرجوان أن أتبعك وأعبد إلهك الذي تحدثت عنه، وكل جنودي معك.

ثم تقدم أهل الوادي جميعًا وراحوا يعلنون الولاء والطاعة لأرجوان، واشتعل قلب أرجوان كله بالسعادة وراح يردد بأعلى صوته:

▪ الله أكبر.

ومن أمامه ردد الجميع، أهل الوادي والجنود والجميع:

* الله أكبر، الله أكبر.

وفي تلك اللحظة انفجر الجبل من جديد، ولكنه انفجر بشلالٍ من المياه المُتدفقة أمام الأعين المذهولة، لقد ابتلعت الأرض النيران وأخرجت المياه، وزادت صيحات "الله أكبر" في الفضاء، وزادت ثورة الشلال حتَّى أغرق الجميع بمياهه

الباردة المُنعشة، وقتها فقط سجد أرجوان لله العظيم، ومن خلفه سجد الجنود وأهل الوادي جميعًا، وتناثرت المياه من حولهم أكثر وأكثر.

ووسط تلك الأجواء وهناك عِند القصر انطلقت عربة تجرها الأحصنة بسرعةٍ مُخيفة وعلى متنها كان سديم يقودها في براعةٍ وسرعة شديدة، ومن خلفه انطلق بعض الجنود هاربين معه حيث الجزيرة التي تحوي الشر في باطنها، شر الهاجس، وفي المقعد الخلفي للعربة كانت هيلانة مُقيدة بالسلاسل وهي تتحرك في عشوائية وتئن في ألمٍ وخوفٍ شديد، لحظتها نظر لها سديم متوعدًا وقال:

◈ أعلم أنكِ من حررتيه من سجنه ليخرج ويهدم كل شيءٍ، ولكني أعدكُ أن أحرر الشر الأكبر، وأن أعود في القريب العاجل لأحرق هذا الوادي بكل مَن فيه، وسأجعل منكِ قُربانًا لهذا الشر الشديد بعدما أُنجب منكِ أطفالًا يحاربون معي، فالجزيرة لم تكشف بعد عن كل أسرارها، والشيطان لن يستسلم بتلك البساطة أبدًا، وفتاكِ حتمًا سيعود إلى الجزيرة ليحررك، وقتها سأجعله يتمنى لو لم يُولد من رحِم تلك المرأةُ الشمطاء، وابن إيوان حتمًا سيثأرُ لأبيه بعدما أقص عليكِ حكايته الرهيبة، فهو هناك في قلب الجحيم ينتظر.

وفي تلك الأثناء كان أرجوان يُهاجم القصر لعله يجد هيلانة، ولكن المفاجأة الحزينة كانت في انتظاره، لقد أخذها سديم ورحل من الوادي كله، لقد أخذها سديم

بعدما وعدها هو بأنه لن يتركها أبدًا مهما حدث، وأدرك بأن الحرب ستأخذ مُنحنى أصعب، سيذهب من جديد إلى الجزيرة، وسيحارب النار وشياطينها وسديم معًا، ولكن لا يهم، سيحرق النار نفسها من أجل وعده، من أجل هيلانة التي عرَّضت حياتها للخطر من أجله، وقبلها من أجل الله الذي آمن به.

وبعد أن وجد القصر فارغًا من سكانه، قرر أن يبيت فيه تلك الليلة ليقرر ما الذي سيفعله بعدما حدث، وفي تلك الليلة رأى الرجل العجوز من جديد، كان يجلس على قمة جبل من الجليد، ناصع البياض، وكان أرجوان أسفل الجبل والبرد يفتك به فتكًا، صاح به أرجوان بأعلى صوته وقال:

▪ لقد هرب سديم ومعه هيلانة فماذا أنا بفاعلٍ؟!

أتاه صوت العجوز مرافقًا لصدى صوتٍ غريب، وقال:

✦ ستُحارب أهل النار بالماء، وسيُصبح الوادي عما قريب مُروجًا وأنهارًا، وسيُصبح الماء بأمر الله بين يديك، فأطفئ به النار والشر، وأغرق به أهل الشرِ، واسقي منه أهل الخير، ولا تستسلم للنار أبدًا.

وقتها تذكر سؤالًا أخيرًا، فقال:

▪ لديَّ سؤالٌ أخيرٌ.

✦ وما هو يا فتى؟

▪ إن كانت جهنم هي عذاب الإله، فهل هناك من مكافأة لعباده المُتقين؟

تردد صوت العجوز في هذا المكان البارد الفسيح، وقال:

✦ إنها الجنة يا فتى.

▪ وهل هي مكافأةٌ تستحق هذا العناء الذي نلاقيه؟!

وقتها رأى أرجوان ابتسامة العجوز رغم بُعد المسافة، وسمع صوته يتردد بين جبال الجليد ويقول:

✦ سَنذهب إليها عمَّا قريب، ولكن لا تنسَ، حارب النار بالماء، وأغرق بها الطُغاة، واسقِ منها العِباد، واعبد الله حتَّى يأتيك اليقين.

ثبت بحمد الله

هل من مزيد

أحمد محمود شرقاوي

أعمال الكاتب

أحمد محمود شرقاوي

- سيرونا ... فتاة من فتيات الجان
- إن الله سيُبطله ٢ "رواية"
- إن الله سيُبطله ١ "رواية"
- إني رأيت"رواية"
- حتَّى زُرتُمُ المَقابر "عدد أول مِن سلسلة مائدة الفزع"
- الميتة والدم "عدد ثاني مِن سلسلة مائدة الفزع "
- لعلهُم يَرجِعُون "عدد ثالث مِن سلسلة مائدة الفزع "
- قَصص الأنبياء "كِتاب"
- قَصص الصحابة "كِتاب"
- نِساء مُخيفات ١ "مَجموعة قصصية"
- نِساء مُخيفات ٢ "مَجموعة قصصية"

للتواصلِ مع الكاتبِ

فيس بوك

واتساب

+٢٠١١٥٠٦١٢٤١٣

لطلب أي كتاب مِن مؤلفاتِ الكاتبِ

مِن خلالِ رقمِ الواتسِ

+٢٠١٢١٠٨٢٦٤١٥